



روايات د. نجيب الكيلاني
من روائع الأدب الإسلامي



الربيع العاصف



The Wild Spring

Dr. Naguib Al Keilany

روايات ونجيب الكيلاني

من إصداراتنا



د. نجيب الكيلاني

الربيع المأموف

مع دراسة نقدية

بقلم الأستاذ

محمد حسن عبد الله

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى للنشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع، ٢٠١٢/١٠١٩

الترقيم الدولي،

977-255-356-2



الصحوة
ALSAHOB

للنشر والتوزيع

٥ عطفة فريد - من شارع مجلس

الشعب - السيدة زينب

تليفون، ٠٠٢٠٢٢٢٩٣٧١٨

تليفاكس، ٠٠٢٠٢٢٢٩٣٧٦٧

daralsahob@gmail.com



لم يكن فى ذهنها- والعربة تسرع عبر الطريق الزراعى
المتدين بين قريتي سباط وشرشابة- سوى صورتين متناقضتين،
تثيران فى قلبها الغض الألم والأحزان، صورة القاهرة الفاتنة
الجميلة حيث الحياة المضيئة، والأهل والأصدقاء والذكريات
والنظافة، وصورة القرية التى تقرر أن تعمل «بوحدها
المجمعة» حيث الفلاحون والبعوض والتراب والأمراض
المتوطنة، وتنهدت منال فى ألم ثم قالت لسائق عربة الأجرة:

- متى نصل شرشابة؟؟

- لم يبق أمامنا سوى مسافة قصيرة.. نحن الآن على
أبواب كفر حسين، وبعده كفر السحمية، وإلى جواره مباشرة
تقع قرية شرشابة، إنها قرية كبيرة، عدد سكانها يقرب من
خمسة عشر ألف نسمة.

كانت هذه أول مرة تذهب فيها «منال» إلى الريف، لقد
قضت كل سنى حياتها فى القاهرة، فى حى السيدة زينب،

درست بالابتدائية، وعامين في المدارس الثانوية، ثم عدة أعوام في مدرسة الحكيمات بالقصر العيني حيث تعلمت فن التمريض، وتخرجت منها حكيمة، وعلى الفور تم تعيينها في مستشفى الوحدة المجمعـة بهذه القرية التي تدلف إليها لأول مرة في حياتها، لتقوم بعملها كحكيمة في هذه المؤسسة الجديدة التي لم يمضِ على افتتاحها سوى أيام قليلة.

وطوال الطريق كانت «منال» تجفف دمعة تنزلق فوق خدها لتستقبل أخرى، كانت تحس أن قلبها وروحها وعينيها كلها تبكى، كل شيء فيها كان يبكى، وكانت الذكريات الحلوة الماضية تتزاحم في رأسها، فلا تثير لديها سوى الحسرة والألم، لطالما تمت في هذه اللحظات الكئيبة أن تمتد إليها يد أمها لتربت على رأسها في حنان، وتخفف عن قلبها المكـلوم آلام الغربة، ووحشة الوحدة، وخيل إليها أيام الفسحة في حديقة الحيوان وفي الهرم، وعلى شاطئ النيل وفي المقطم، وشارع فؤاد، ودور السينما الرائعة، والكازينوهات الخافتة الضوء، خيل إليها أن هذه الأيام أصبحت كالأمنية الرائعة التي لن تعود، ولن يجود بمثلها الزمان.. ليس هذا فحسب، بل خفق قلبها خفقات حلوة لذيدة تورد معها خدها، وشعرت بغير قليل من الخجل العذري عندما تذكرت القصر العيني - عالمها الفاتن المثير - حيث أطباء الامتياز ومئات بل ألوف زميلاتـها،

وطرقات المستشفى الكبير الباهتة الضوء، وليالى النوبتجية حيث الشباب والعبث والمرح، ومعارك الحب البرىء ومشاعر النضوج والأمل التى تخفق فى صدرها وروحها، والتى تتسلل إلى جفניה فتورثهما الأرق والسهر، ومئات القصص الشائقة التى تتناقلها أفواه العذارى فى القصر الكبير . . فى عنابر المرضى، وفى أكشاك الفحص الطبى، وفى حجرات العمليات الجراحية، وصحت «منال» من أحلامها على صوت السائق:

- هنا كفر حسين . .

ومن خلال نافذة العربة أرسلت منال نظراتها الدمعة كان التراب يشور ويملاً الطريق الزراعى، والعربة تخلف وراءها قطاعاً مستطيلاً كالسراب المعتم، وأطفال صغار حفاة وأحياناً عراة يتدافعون حول العربة، ويشيرون ضجيجاً مسموعاً مسرعاً، ونظراتهم الفضولية الجائعة إلى كل جديد عليهم تكاد تنسيهم الخطر المحدق بهم وهم يحاولون التعلق بجوانب العربة ومؤخرتها، وقوافل صغيرة من الأوز والدجاج والماعز والخراف تعترض الطريق فيضطر السائق إلى تفاديها أو التوقف حتى تنحى جانباً، ونساء غارقات فى أرديتهن السود يمددن أعناقهن من خلال النوافذ ذات القضبان الحديدية، أو الأبواب التى تتراص على جانبي الشارع والتى تؤدى إلى بيوت قميئة

مطلية بالطين ونادراً بالجص، تفوح من داخلها روائح عدة،
روائح حياة الإنسان والحيوان.. وأكوام التراب وفجوات
الطريق وعدم استوائه جعلت العربدة تعلو وتهبط وتتأرجح،
و«منال» بداخلها تتطوح يمين ويسرة وأعلى وأسفل، وتحاول
جاهدة أن تحفظ توازنها، وهتفت في ضيق:

- لماذا لا يمهّدون هذه الطريق؟؟

فافتتر ثغر السائق عن ابتسامة لم ترها «منال»، وقال:

- كلامك يذكرني بحادثة جرت لابنة أحد الملوك.. لقد
سمعت أن الشعب ناثر.. وجائع.. فقالت لأبيها في استغراب
«إذا لم يجد الناس الخبز فلماذا لا يأكلون الخشاف؟».

وابتسمت «منال» ابتسامة فيها الكثير من المجاملة، ابتسامة
مغتصبة لم تكن نابعة من أعماقها فقد كانت تشعر بعزوف
شديد عن المرح، والابتهاج، والابتسام، وقالت:

- وهل شرشابة بهذه الصورة؟؟

- كفر حسين صورة مصغرة لشرشابة يا أنسى..

وخرجت العربدة من كفر حسين، وعلى اليمين كانت تمتد
بركة واسعة يسبح فيها البط والأوز تثور من ناحيتها رائحة
العطن، ومن حولها تمتد الغيطان الخضراء، وعلى جانبي
الطريق قامت أشجار السنط تبدو في جفافها وخلوها من المناظر

الجميلة وكأنها الفلاح الجاف الأسمر الفقير الذى يجلس تحت ظلها الخادع يطعم جاموسته أو يعزق الأرض، أو يأكل لقيمات جافة، أو يشرب من قُلة عجفاء رمادية اللون مغبرة..

واقتربت شرشابة- بيت القصيد- وشعرت «منال» - وهى تندفع إليها - بشعور الذهاب إلى مدينة الأموات رغم أنها ترى الأحياء يروحون ويحيثون، كانت تعتقد أنها تساق إلى حتفها سوقاً، فترقت الدموع بين أهدابها الطويلة، وغامت عيناها، ولم تستطع أن ترى بعض الأبنية الجميلة لحدما، ولم تر أيضاً «دكان البقالة» الذى يضع أمامه ثلاثة للمشروبات الغازية، وسمعت منال صوت السائق يتهادى على أذنيها متغلباً على الضجيج الذى يثيره أطفال القرية:

- لا تحزنى.. أكل العيش يدفعنا لأن نقاسى شيئاً من المرارة.. ثم إن شرشابة قرية لطيفة.. وأهلها أولاد حظ.. أنا أعرفها تماماً، وهى لا تبعد عن طنطا- بلد السيد البدوى- أكثر من عشرين كيلو متراً، وفيها عدد لا بأس به من الأثرياء.. وكبار الموظفين، وأكد لك أنك لن تشعرى بكثير من الملل..

وعند مرور العربة أمام مدرسة القرية الابتدائية كان يقف أحد الخفراء، فانتحى جانب الطريق يصرخ فى الأطفال كى يبعدهم عن طريق العربة فى لهجة صارمة حادة، وإن كان

الأطفال لا يعيرونه كثيراً من الالتفات، وعندما حاذته العربة وقف فى وضع انتباه ورفع يده بحذاء حاجبه مؤدياً التحية العسكرية، وقالت منال فى استغراب:

- هل يحيينا . . ؟؟

- أجل، القرية كلها الآن تعرف أنك فى الطريق . . ثم إن الفلاحين يحيون راكبى العربات أياً كان لونهم . . سترين فيما بعد أنهم لن يفرقوا بينك وبين طبيب المجموعة الصحية، كل من حمل محقناً وارتدى الزى الأبيض فهو فى نظرهم طبيب . . وموظف حكومة . . يجب أن يحترم وأن تقدم له الهدايا . . إنهم بسطاء . . وكرماء . . قلبهم أبيض مثل القطن . . مثل اللبن الحليب .

وقطع السائق حديثه فجأة، ثم أشار بيده ناحية اليسار بعد المدرسة الابتدائية بقليل، وقال: هذا المبنى الضخم لا يقل روعة عن بعض عمارات القاهرة . .

فقالت منال:

- أجل . . لعله بيت العمدة . .

- كلا . . بل تفتيش أحد أغنياء المنطقة، يسمونه وقف «جنيد» يملكه عدد من الورثة أغلبهم من النساء، والأرض التى يضمها وقف جنيد هنا تكون حيزاً كبيراً من الأرض المتزرعة . .

العين الفضولية تتلصص عبر نوافذ العربة ، وتتركز لبعض لحظات على المرأة الجميلة التى تحبس فى المقعد الخلفى ، والنظرات المشوقة إلى كل جديد تلاحق العربة رغم ذيل التراب الضخم الذى ينسحب وراءها ، ويكاد يخفيها عن الأنظار ، والسائق يحاول جاهداً أن يطلق النفير باستمرار حتى يحذر الأطفال المندفعين نحوه دون حذر ، وعلى جانبي الطريق خلق كثير يلبسون الطواقى والعمائم واللبدة ، ونادر جداً من يضعون فوق رؤوسهم الطرايش ، والبعض ينام فوق المصاطب إلى جوار الماعز ، ورغم الضجة الماثرة إلا أنها تبدو أمام منال ضجة صغيرة . . كأنها أنات محتضر فى نزع الأخير ، وهل تقاس هذه الضوضاء الواهنة المؤقتة بضوضاء الترام فى ميدان السيدة زينب ، وضجيج الأوتوبيسات والعربات والباعة والمجاذيب والمقاهى وأجهزة الراديو التى تنطلق وتملأ سماء المدينة بالأنغام والأغنيات والأناشيد؟

ومرقت العربة فوق قنطرة خشبية متهاكة ؛ لتعبر ترعة كبيرة يعوم فيها الأطفال وتشرب منها البهائم ، على شاطئها بعض الحشائش والصبار وشجرة توت كبيرة ، وهمس السائق وهو فى الطرف الآخر من القنطرة :

- هذا هو المقهى الجديد . . وإلى جواره مباشرة - كما
ترين - الوحدة المجمعة . .

- ورفعت «منال» عينيها المحتقتين قليلاً، وشاهدت المبنى الأبيض الأنيق المكون من عدة أبنية صغيرة، وصهريج الماء المرتفع، ومن تحته صف من صنادير الماء المفتوحة ونساء يضعن جرارهن تحت الماء المتدفق، وسور من الأسلاك الشائكة يحيط بالمبنى ويجعله يبدو في عيني منال وكأنه سجن رغم أناقة المبنى ونظافته ووقفت العربية لدى باب الوحدة المجمعة، ونزل السائق ثم فتح الباب الخلفي وخرجت منه منال منحنية بعد أن وضعت فوق عينيها نظارة شمسية سوداء جميلة، واستقامت واقفة، بينما أسرع أحد خفراء الوحدة وإحدى التومرجيات بحمل حقائبها إلى الداخل، وكلمات الترحيب الحية الخجولة تنساب من أفواه مَنْ تجمعوا بالقرب من العربية، وفي باحة المستشفى كان يقف الطبيب الجديد الذي وصل منذ يومين اثنين، وفي يده سلسلة فضية يلفها ثم يطلقها من حول إصبعه، كان سميناً لحد ما، لم يستطع المعطف الأبيض أن يخفي كرشه الصغير المستدير، وبدأ شعره المنسق الذي يلمع تحت أشعة الشمس، وكأنه يهتف بالتأنيق، وبدأت نظارته البيضاء فوق عينيه لتزيده أناقة ونظافة.

ووقف رواد المقهى المجاور مشدوهين، لقد نَحُوا «الجوزة» جانباً، وتركوا أكواب الشاي والقهوة باردة فوق المناضد الخشبية الصغيرة، ولاعبو الطاولة هم الآخرون تشنجت

أيديهم فوق القطع والزهر، كانت العيون كلها متجهة نحو امرأة جميلة فاتنة فاحمة الشعر، بضرة، بيضاء البشرة، نحيلة الخصر، متفخة الردين، صدرها يبرز إلى الأمام فى كبرياء وتحذ وكأنه منصة عالية، ذات أنامل رقيقة مخضوبة، فى يسراها ساعة ذهبية، وفى يمينها خاتم ذهبى وعدة أساور، وحول عنقها الممتلىء التف عقد ملون ينسجم تمام الانسجام مع قرطبيها.

وصفق صاحب المقهى المعلم «حامد المليجى»، وقال بصوت عال:

هيه . . فرجت . . والله العظيم فرجت . . مرحباً مرحباً . .
بأولاد مصر العترة . . يا صلاة النبى . . الجميل يحب لأجل
النبى . .

كانت صيحات المعلم حدّاً فاصلاً بين الدهشة التى سادت الجميع، وبين بداية الحركة . . حركة الاستقبال التى يجب أن تكون لامرأة وحيدة . . غريبة وجميلة تنزل القرية لأول مرة . . واقترب الطبيب من باب الوحدة، ومن حوله مجموعة من الرجال منهم من يقوم بالعمل فى الوحدة، ومنهم بعض رجالات القرية ذوى السلطة والنفوذ، وارتسمت على الثغور ابتسامات المجاملة المعهودة، ابتسامات لا معنى لها، أو هكذا خيل إلى «منال»، وصافحها الطبيب

مرحباً، وإن شابت جركاته بعض السمات التى تنبى عن
الارتباك والتلعثم، وغمغم:

- رمزى إبراهيم . . طيب الوحدة . .

- منال عبد المجيد . . الحكيمة . .

- أهلاً . . وسهلاً . .

وعاد زبائن المقهى إلى كركرة الجوزة، ولعب الطاولة،
وارتشاف أكواب الشاي والقهوة، أو دس قطع صغير سوداء
فى أفواههم يلوكونها فى استمتاع ولذة ونعاس، وأصوات
هامسة تنطلق هنا وهناك «نسوان مصر مثل اللبن . . قشطة يا
حبيبى . . مهلبية يا عالم . . هنيئاً لكم . . ياما نفسى أزور
النبي . . وحدوه يا جدعان . . يا بدوى . . منك الله يا أم العز يا
امرأتى يا . . شيخ الخفر . .»، بينما انطلق صوت مغنى الموال
على أنغام الأرغول قائلاً:

والله إن صفالى زمانى لأسكنك مصر

وابنى جينة ومن جواً الجينة . . قصر

ومن حوله تنطلق التأوهات، وصيحات الإعجاب
السكرى . . المتشبة بالروح الجديدة والحياة الرائعة التى تدق
أبواب قريتهم النائمة القابعة إلى جوار السرعة فى هدوء
وسكون منذ سنين بعيدة.

ومن ناحية أخرى فقد كان الطبيب يقوم بدور تعريف «منال» إلى جمهوره وتعريفهم لها، ولم يلفت نظر «منال» أحد منهم، لا الطبيب نفسه . . ولا شيخ البلد . . ولا المعلم حامد المليجي صاحب المقهى الذى أتى مسرعاً . . ولا . . ولا . . إلا رجل غريب أصفر الوجه، فوق قرنية عينه اليسرى غيمة «نقطة» كما يقولون . . هذا الرجل قدمه الطبيب إليها قائلاً: «عبد المعطى . . أو الباشكاتب عبد المعطى كما يسمونه هنا . . إنه رجل مهم . . مهم جداً . .» .

وتلفتت «منال» فى استغراب إلى الرجل الضامر الأصفر، المنتفخ البطن، والذى يلبس جلباباً من قماش رخيص ثم عادت إلى صمتها وأحزانها . . والغربة القاسية التى تلف حياتها الجديدة بالشحوب والأسى .





استيقظ عبد المعطى مبكراً فى اليوم التالى ، وأدى فريضة صلاة الصبح على عجل ، وجلس وحيداً فى قاعته الخافتة الضوء ، مفترشاً حصيراً بالية ، وإلى جوار الحائط ارتمت وسادته القديمة المتسخة ، ولحافه الرث الذى يبرز من بعض تمزقاته ندف من القطن الذى يحشوه ، وكانت هذه الحجرة إحدى الحجرات السبع فى بيت أبيه ، فلعبد المعطى خمسة رجال إخوة يشتغلون بفلاحة الأرض ، وعدد من الأخوات ، ولإخوته عدد غير قليل من الأطفال الذين يملئون البيت بالضجيج والعويل منذ الصباح الباكر ، كان عبد المعطى ينتظر طعام الفطور الذى لا يخرج عن طبق من اللبن الرايب ، وقطعة من الجبن ، ورغيف جاف ثم يتبع ذلك بكوب من الشاى الأسود المركز ، ويعدّها يلف سيجارة من علبته الصفيحية الصدئة . . لم يكن عبد المعطى يفكر فى الطعام هذا الصباح .

ولم تشغل ذهنه الأوراق والأقلام، وهما يكونان الجانب الأكبر فى حياته . . فعبد المعطى لم يشتغل بزراعة الأرض مثل إخوته وأبيه العجوز، فلقد استطاع أن يحفظ القرآن فى صغره، ويجيد القراءة والكتابة، وبعض كتب الفقه القديمة، مما جعله يتصفح الجرائد ويفهم بعض ما فيها، وينال بين الفلاحين منزلة يحسد عليها، فهو الذى يكتب لهم الخطابات بأسلوبه الحلو، وهو الذى يدبج لهم الشكاوى والعرائض، ويشرح لهم قوانين وزارة الزراعة، والسلفيات ولائحة الجمعيات التعاونية، ودفع الضرائب وأسعار السماد والقطن، ويفتى لهم بعلم ويغير علم فى المخالفات التى يقع فيها الفلاحون ويتعرضون بسببها للغرامات والحبس . . والأخطر من هذا كله أن عبد المعطى إنسان مخيف فى القرية حقاً، إذ إنه يقف للعمدة ومشايخ البلد ومحصل الضرائب بالمرصاد، فإذا ما ضايقه أحد، أو عرقل له أمراً، أو خيب له رجاء، لا يعدم عبد المعطى أية حيلة كى يوقع أحدهم فى ورطة . . القلم معه والأوراق . . والهيئات المسئولة ترحب بكل شكوى وتحقق فيها مما قد يؤدى إلى وقف . . المخطئ . . ولا ينسى أهل القرية يوم أن أوقع عبد المعطى شيخ البلد فى الفخ حينما أمسك به متلبساً ببعض المخالفات التموينية الخطرة التى كانت كفيلة بأن تقذف به إلى السجن، هنا موطن الخطورة فى عبد المعطى، ولهذا

السبب نفسه أطلقوا عليه اسم «الباشكاتب عبد المعطى» . .
 الفلاحون يقولون عنه خطه مثل السلاسل الذهب . . شكواه لا
 تنزل الأرض . . الكمبيالة التى يكتبها أو العقد الذى يسطره
 فوق الخطأ والشبهات . . وإذا أقسم لا بد أن يبر بقسمه ،
 انتظاره أكيد وإن طال الزمن . . دؤوب حقود شرس بطبعه . .
 يكره من هم فوقه حتى لكانه يظن أنهم هم سبب فقره ، وسبب
 مرضه الذى أصابه ، ونصف العمى فى إحدى عينيه ،
 والتضخم الذى يشوه مظهر بطنه .

والجميع فى القرية يسجلون له بالفخار كفاحه من أجل بناء
 المستشفى ، وللمستشفى فى القرية تاريخ طويل منذ أن بدأ
 المشروع ، وجمعت له التبرعات من سنوات ووضعها نائب
 الدائرة فى جيبه ، ونشر فى الصحف وفى البرلمان أنه تبرع
 بالجزء الأكبر من المبلغ من ماله الخاصة ، واستغل الموضوع فى
 الدعاية لنفسه فى الانتخابات وخارج الانتخابات . . وطال
 الزمن وكثرت الوعود ، وأهل القرية لا يجدون بارقة أمل . .
 حتى امتشق الباشكاتب عبد المعطى قلمه ، ونشر أوراقه ، وأخذ
 يسدد سهام شكواه للصحف وللمستولين ، فأثار ضجة
 كبرى . . تشبه الفضيحة ، ثم انتهاز فرصة قيام الثورة ووالى
 كفاحه ونشاطه حتى تحقق الحلم الكبير لأهل القرية . .
 وأصبحت الوحدة المجمع والمشفى حقيقة واقعة ، ويوم

الافتتاح لبس «عبد المعطى» جلبابه الصوفى - جلباب
المناسبات - وطاقيّة صوفية فى بياض اللبن الحليب، ومسبحة
سمراء فى يده وعصاه السمراء الثمينة معلقة فى ذراعه . .
ووقف فى حفل الافتتاح، وترنم بقصيدة طويلة على غمط
القصاصد التى كان يقرؤها فى كتب عترة بن شداد وأبى زيد
الهلالى، والتى يقول فى مطلعها:

شَرَفْتُمُونَا وَحَلَّ الْأَنْسُ سَاحَتَنَا

وَالْبِشْرُ يَخْتَالُ تَبَاهًا بِوَادِينَا

ونال «شرشابة» السمحاء مفخرة

كانت لأهل التُّقَى عِزًّا وَنَمَكِينَا

ورغم أن المثقفين فى القرية آنذاك ابتسموا فى سخرية لشعر
عبد المعطى، وأشبعوه (تريقة)، إلا أن موسيقاها الطنانة،
ومعانيها التى تشبه الطبل الأجوف قد اجتذبت أسماع
الفلاحين، ولفتت أنظارهم، وصفقوا لها طويلاً، وكيف لا
وعبد المعطى فى نظرهم هو الذى جعل المستشفى حقيقة
واقعة، وهو المهرب الجانب، والذى يفهم كل شىء ولا يُهْزَم
أبداً . . ؟

لم يكن عبد المعطى فى ذلك الصباح يفكر فى شىء من
ذلك كله . .

شئ واحد هز كيانه هزاً عنيفاً، وجرى فى روحه الظمآنة المتعبة مجرى الماء العذب حين ينزل أرضاً مقفرة، ولم يكن هذا الشئ سوى «منال»، منال الحكيمة الجديدة، المرأة الغريبة التى نزلت القرية، فطار اسمها إلى كل بيت، وعشقتها القلوب قبل أن تراها العيون، وتشوق إليها من لم يحظَ بمشاهدتها، حتى غدت فى ساعات قليلة وكأنها ملكة قد توجت حديثاً على عرش القرية التى تدخل فى عهد جديد وتبدأ حياة لا عهد لها بها، وتزحف المدنية والنور إلى بيوت سكانها وعقولهم وأرواحهم . .

كان أبشع ما يقلق عبد المعطى أنه أصفر . . عليل . . نصف أعمى، فإذا ما قارن نفسه بالطبيب الأنيق النظيف الذى يتدلى من عنقه سماعه الذى توجف اليد خيفة أن تلمسه، وإذا ما تذكر الإخصائى الاجتماعى الذى حضر مع الطبيب بسحته السمراء، وبناء جسده القوى، ونبراته الهادئة الواثقة، وذلك الشاب اللثيم صاحب النظرات الخبيثة، والذى يقوم بالتحاليل الطبية فى المعمل، ثم هؤلاء الطلبة الجامعيون فى القرية الذين يكثرون من الحديث عن الحب والنساء والسياسة والمدينة، كل أولئك أين يذهب منهم عبد المعطى؟ وهل تسقط «منال» كل هذه الاعتبارات، وتتناسى تلك الشخصيات وتهب نفسها لرجل فلاح عليل مثل عبد المعطى . . لا يلفت النظر . . ؟، وعندئذ صاح عبد المعطى:

- وكيف لا ألفت النظر؟ .. أنا الباشكاتب عبد المعطى على سن ورمح .. لولاي ما أتت منال إلى هنا، ولا نالت هذه الوظيفة، كفاحى هو الذى أوجد المستشفى من العدم .. وصيحاتى القوية هى التى أزعجت النائب السابق وأعوانه .. وهى التى سحقت طغيان العمدة وشيخ البلد .. أنا ابن القرية الأصل .. إن وجودى هنا أمر ضرورى .. قد أكون عليلًا أو غير جميل .. لكنى ألفت النظر .. بمكانتى المرهوبة .. بحد قلمى .. أنا هنا صاحب الكلمة .. وهذا هو مقياس الرجولة والبطولة، ومتى كان الرجال يقاسون بالوجاهة والمظهر الكاذب؟ .. وهؤلاء الطلبة الجامعيون لم ينالوا من التعليم غير الطراوة والميوعة وسبسية شعورهم، وأحذيتهم اللامعة التى تشبه فى لمعانها بشرة وجوههم التى يجرون فوقها الموس صباح مساء .. أما المشرف الاجتماعى أو موظف المعمل فكلاهما موظف .. خادم القرية ليس إلا .. ويوم أن ينسى أحدهم مهمته، والعمل المنوط به، فسأعرف كيف أؤدبه أو أقذف به فى التربة أو إلى أى وحدة مجمعة أخرى ..

واستراحت نفس عبد المعطى قليلاً لتلك المبررات التى تواردت على ذهنه الساهد المكدود، وعادت إلى فكره صورة الفتاة الأنيقة الفاتنة، التى هبطت من السيارة بالأمس، واضعة منظارها الأسود فوق عينيها، وكل حركاتها تنبى عن الرشاقة

وخفة الروح . . وتوحى بالحياة . . بالبعث . . بالأمل المنعش الكبير . . آه . . لكم ظلت صورتها تلح عليه فى سهاده الطويل ليلة أمس . . وكم داعبت أحلامه فى اللحظات الخاطفة التى تسلى النوم فيها إلى عينيه . . إنها الحب والأرق والعذاب والمتعة . . مثل النساء اللواتى رآهن عبد المعطى ذات مرة فى دار عرض للسينما بمدينة زفتى الصغيرة . . وأين منها نساء القرية العجافوات الغارقات فى السواد والوحل؟؟ هذه المرأة - منال - خلقت لرجل . . لم لا أكون هذا الرجل؟؟ . . إن علتى من الممكن علاجها . . وعينى أيضاً فيها أمل . . فقد قرأت كثيراً فى الصحف عن عملية ترقيع القرنية . . ياله من حلم!! وبعدها أستطيع أن أرفع رأسى فى كبرياء وثقة . . أنا فلاح حمش شهم قبل كل شئ . . فى القوة والحرارة . . والشباب . . وهز عبد المعطى ذراعه ثم ثناه وفرده، ليؤكد لنفسه زعمه بأنه قوى، وأفاق من هواجسه على صوت أمه :

- ماذا تعمل يا عبد المعطى؟؟ أتزاول الرياضة مثل رقعاء المدارس؟؟ . .

كانت تحمل على كفها طبق اللبن الرائب وفوقه عددًا من الأرغفة، وفى اليد الأخرى الشاي والسكر، ورفع عبد المعطى رأسه وحملق فيها، كانت عجوزاً شمطاء ملأت السنون وجهها بالتجعدات، ولعبت أصابع الشيب العابثة فى شعرها

فصبغته بالبياض ، وتسلمت إلى فمها فجعلته خاوياً لا أسنان فيه ، وأحنت قامتها فجعلتها مثل علامة الاستفهام القلقة المرتعشة ، شتان بين منال وأمه . . بين شرشابة والقاهرة . . ولم يجب عبد المعطى على تساؤلها بغير الصمت ، بينما استطردت أمه مثرثرة :

- قالوا إن المستشفى بدأت عملها اليوم . . لا بد أن تكون أمك أول من يفحصها الطبيب . . أنا أم عبد المعطى ربنا يحرسه . . اللقمة إذا أكلتها تقف على قلبى هنا . . رأسى تفور دائماً . . والسعال يقطع نفسى . .

وحاول عبد المعطى أن يضع حداً لثرثرتها فقال :

- إن شاء الله . . إن شاء الله . .

- والله عشنا . . ورأينا المستشفى . . من كان يصدق؟ . .

وقطعت الأم حديثها فجأة ، وتطلعت لعبد المعطى فى حسرة ، ثم قالت :

- لكن لماذا تنسى نفسك يا عبد المعطى؟؟ صحتك لا

تعجبني أبداً ، من زمن طويل وأنت تهملها ، يجب أن تعالج الكبد والمرارة . . كلما قلنا لك تزوج . . قلت صحتى لا تساعدنى على الزواج . . وكلما قلنا لك ابحث عن وظيفة ، أبديت خوفك من الكشف الطبى ، الآن تستطيع أن تعالج

نفسك . . لم يبقَ إلا أنت في إختوتك . . يجب أن أفرح
بزواجك قبل أن أموت . .

وازداد وجه عبد المعطى شحوباً، وارتسمت على محياه سيما
الألم والمرارة، كانت كلمات أمه مثل المسامير التي تنغرز في قلبه
الذي بدأ يتفتح للحب والحياة، وأوقعته هذه الحقائق البسيطة
التي تتناثر من فمها إلى أرض الواقع الأليم، وبعدت به عن
سماء الخيال والأمل، وملأت نفسه بالغضاضة والأسى، وفاض
قلبه بالحق والثورة، وأحس بخيبة أمل كبرى، وصرخ في أمه:

- ما فائدة هذا الكلام؟ . . ضعى الطعام واخرجى . .
دعيني وشأني . . لا تنطقى بهذه الكلمات مرة أخرى وإلا . .
- اللهم أخزك يا شيطان . . ماذا جرى لك يا ولدى؟ إنى لا
أفكر إلا فى مصلحتك . .

وتركته أمه وخرجت، وهى لا تدري على وجه الدقة ما
الذى أزعج ولدها، ولكنها التمسّت له العذر، فالمرضى دائماً
سريعو الغضب، سرعان ما يفقدون سيطرتهم على أنفسهم
لأوهى الأسباب، ولم تفعل شيئاً سوى أن تمتمت بالدعاء له
أن يكتب الله له الشفاء، ويهبه العمر الطويل . .

وأحس عبد المعطى بنفور تام من الطعام، كل يوم الطعام
نفسه، اللبن الرائب والجبن والخبز الجاف وكوب الشاي
الأسود؟ لا جديد أبداً . . كل شيء عمل رتيب حمضى المذاق

مثل اللبن الرائب تمامًا، وأحيانًا مر كالشاي المركز . . حتى هذه القلّة التي تقبع خلف الباب وتبلل ما تحتها لم تتغير منذ عام تقريبًا، فوهتها مكسورة منفرة . .

ألا يوجد بالبيت شيء جديد، مثير يلفت النظر، يغرى بالاندفاع إليه، ويوقظ الإحساس النائم، الجاثم في داخله كالظل الثقيل . . كشجرة الجميز العتيقة التي تربض أمام بيت أبيه؟؟

وهمّ عبد المعطى أن يهب واقفًا، عزوفًا عن الطعام وعن جو الحجرة المألوف وجو البيت كله، لكنه توقف . . يجب أن يأكل . . وكيف يعيش بدون طعام؟؟ منذ الآن يجب أن يفكر في صحته، لشد ما كانت أمه صادقة فيما قالت، لكنه كان جافًا غليظ القلب . . لن يأكل اللبن والجبن فقط . . سيضيف بيضتين إلى فطوره . . ولن يأكل اللبن رائبًا . . سوف يتناوله طازجًا كما هو من ثدى الجاموسة، ولن يكون الشاي مركزًا بعد الآن، سوف يودع بخله ويستخرج الجنيهات التي ادخرها طوال السنين الفائتة . . صحته أهم من المال ومن المستقبل ومن الدنيا بأسرها . . آه . . سوف أدفع للطبيب ما يشاء . . إنني أحس بشيء خفي يحرضني عليه . . شيء يشبه الكره . . لكن . . لكن يجب أن تكون علاقتي معه طيبة، لن أقبل أن يعالجنى مجانًا . . ليأخذ مالي ويهينى الصحة . . وفي أعقاب الصحة تأتي السعادة . . ويأتي الحب .

وسمع صوتاً ينبعث مجلجلاً من ناحية مدخل البيت :

- يا سى عبد المعطى . . صح النوم . . ناموسيتك كحلى . .
قم يا رجل واكتب الجواب للبنت . .

وعرف عبد المعطى صوتها على الفور ، كان صوت «علية»
زوجة المرحوم عباس أبو نجم . . تلك الأرملة اللعوب الفقيرة
التي تطارده دائماً ، وتتعلل بابتها التي تعمل كخادمة فى
طنطا ، ولا تكف عن كتابة الخطابات إليها ، وشعر عبد المعطى
بالتقزز والنفور منها ، وهم أن يخرج إليها ويطردها ويمتنع عن
كتابة أية خطابات لها ، لكنه يجب ألا يفعل ذلك إنه الآن فى
حاجة ماسة إلى المال . . المال هو السحر الذى سوف يغير حياته
ويهبه الصحة ، ويجعل «منال» قرية المنال منه .

- ادخلى يا علية . . ادخلى يا طويلة اللسان . .

واستطاع عبد المعطى جاهداً أن يجعل المرح يسود جو
المكان ، وأن يمد حبال الأمل بالنسبة لعلية ، وتحمل غزلها
السمج ، ومداعبتها الثقيلة ، ألوف السلام ، وملايين التحية ،
والقبلات الحارة ، كلها كتبها لابنتها حسب رغبتها ، كانت
ترغى وتزيد وتكرر وتعيد ما قالت ، وخاصة «الشيك» الذى
تنتظره «علية» من بنتها ، كانت تردده مرة كل سطرين ، وعبد
المعطى صابر محتسب . . والصبر طيب ، ويبدو أن علية قد

سُرَّت لبشاشة عبد المعطى وابتسامه لها، وسعة صدره لكل ما تفعله، والدليل على ذلك أنها أسقطت فى يده بعد كتابة الخطاب خمسة قروش كاملة . .

وحينما خرجت من لدنه تنفس الصعداء، كانت عبثاً ثقيلاً على قلبه ورووحه، ازداد ثقلها بعد التطورات الأخيرة التى حدثت لعبد المعطى، وتمتم عبد المعطى: «هذه المتصاوية الخربة . . الحمقاء . . تريد أن تتزوجنى . . يا للمهزلة!!! لكن والله تشكر فيها الخير، لم تقل مرة أنى عليل أو . .»

ونفخ عبد المعطى فى غيظ، ثم هبَّ واقفاً، وشىء كالخدر يسرى فى جسده، وشعر - أو هذا خيل إليه - أن الدم يجرى حاراً دفاقاً فى عروقه، وحسب أن وجنتيه قد توردتا من أثر الحرارة التى أشعلت روحه وجسده، وخيال «منال» الوديع الصافى، بوجهه المثير، وجوّه ذى الأريج والشنوة الغريبة يملأ عالمه وخياله، وقصد من فوره إلى حيث يعلق جلبابه الصوفى فوق مشجب على الحائط، وإلى جواره عصاه الثمينة، ومسبحته العريقة، وطاقيته الصوفية البيضاء، وغمغم وهو يرتدى طاقمه الفخم . . طاقم المناسبات الكبيرة . .

- سوف أذهب إليها الآن . . ألم يقل لها الطيب بالأمس، أنى مهم . . مهم جداً؟؟ .



قال الطبيب وهو يجفف يديه بعد غسلهما فى وعاء به
«ديتول» مخفف :

- فى بحر عام واحد يجب أن أمتلك سيارة فاخرة تليق بى
كطبيب، كما يجب أن يكون معى مبلغ كبير من المال . .
فقلت منال وهى تبسم :

- أحلام الأطباء الجدد مجد . . ومال . . وعربة فاخرة .
- وماذا فى ذلك؟؟ نحن ندفع الثمن من دراستنا الصعبة
الطويلة ومن عملنا الشاق فى هذه الغربة، وسط الفلاحين
والبعوض والتراب :
فقلت ساخرة :

- ووسط هدايا الأوز والحمام والبط التى تتدفق عليك
صباح مساء . .

وتطلعت منال إلى الطبيب ، كانت عيناه تشعان إشراقاً وسعادة ، ويبدو أن صحته قد تحسنت كثيراً ، وانسجمت تماماً مع جو الريف ومع الربح الكبير الذى يتدفق فى جيوبه ، والهدايا المتتالية التى تطرق باب مسكنه من آن لآخر ، وبدا جلياً أمامها أن الطبيب لا يفكر كثيراً فى جو القرية . . جو القرية الذى يعيش فيه ، ولا يشعر بشيء من الضيق أو الملل ، ولم يذكر مرة أنه قد تشوق إلى أهله فى الإسكندرية ، ولم يثر مرة حديثاً عن ذكرى حب قديم ، أو امرأة تركها وراءه فخلفت فى قلبه لوعة ، أو هيجت شجناً ، كان الطبيب فى نظرها إنساناً جامداً الحواس . . غارقاً فى أحلامه المادية . .

أما حديثه عن البعوض والفلاحين والتراب فهو من قبيل التأنق الذى يجب أن يتحلى به رجل له مركزه ، وغمغمت منال :

- «ألا تحس بشيء من الفراغ . . ؟» .

قهقهه ساخراً ، وقال :

- أى فراغ تقصدين ؟ إن ساعات النوم نفسها لا أهنأ بها . . فى الصباح تتراكم أفواج الفلاحين أمام باب العيادة الخارجية . . بأطفالهم وقاذوراتهم وسعالهم ووجوههم الكالحة . . فإذا ما انتهت العيادة جاء دور الفحص الخاص لمن

يدفعون الثمن . . أقصد الزبائن الذين يتعامل معهم الباشكاتب عبد المطعى . . إنه وسيط خبيث . . يأخذ أجرة الكشف الطبى ويحتجز لنفسه السمسة المعهودة . . عشرين فى المائة . . يا لهذا الرجل !! إنه يعرف وضعى القانونى . . ويدرك أن ما أفعله أمر خارج ، ومن ثم أهتبل الفرصة السانحة . . وحتى لو لم يكن وسيطاً لكان من الضرورى أن أسكت قلمه الشرس وأوراقه التى لا ترحم . . وشكاواه التى كان من المستحيل أن أنجو منها . . والمهم . . لا نكاد نفرغ من العمل إلا فى ساعة متأخرة من النهار ، فإذا ما جاء الليل . . كان النوم متقطعاً مرهقاً . . هذا عنده مغص كلوى حاد . . وتلك امرأة تلد ومتعسرة فى الولادة . . حالة نزيف دموى خطيرة . . إلخ . . إنها يا عزيزتى منال دائرة مفرغة . . مزعجة . . عملة . . لكن الاستغراق فى العمل ، وعملى الخاص الذى يدر بعض المال ينسيانى ما كان من المتوقع أن أقاسيه من فراغ وغربة وألم . . هذه التوائم الثلاثة لا وجود لها إلا فى خيال الشواذ والحالمين . .

فتنهدت منال فى مرارة . . وخاصة عندما استعادت ذكريات الأيام القلائل التى قضتها فى القرية ، اليوم يبدو - رغم كثرة المشاكل - طويلاً سقيماً ، والجمود يصبغ كل شىء ، وأصبحت القرية هى كل عالمها ، والأحاديث لا تدور إلا حول المرضى ، والمشاكل التافهة الصغيرة التى تحدث من آن لآخر ،

تكون سوى مادة جديدة للتسلية وإزجاء الوقت، ونادرة تتفكه بها من آن لآخر، فقلبيها لم يزل كالطائر المحلق في جو السماء . . لا يدري أين يتخذ له عشًا . . حبها في الماضي والحاضر . . عبث وتضييع وقت . . مجرد لعبة . . مثل لعبة الورق، أو مثل الطاولة . . ليس إلا . . مثلاً . . ذلك الطبيب . . يا له من رجل . . أحياناً يمسك بيدها اللدنة ويضغط عليها، أو يقرصها . . وذات ليلة والليل يغطي القرية . . و«الكشك» حال إلا منهما في انتظار حالة ولادة، اختطف منها الطبيب قلبه . . كانت أنفاسه لاهثة . . ساخنة وكانت هي شبه نائمة . . التعب والنوم والذكريات والفراغ والملل كانت تحتل رأسها . . وأحست بشفتيه على ثغرها فدفعته عنها . . لم يكن دفعها عنيفاً تماماً، ومن ثم قال الطبيب :

- إنك تريدن مزيداً من الفراغ والغربة . .

- لكن هذا لا يصح . .

- وهل يصح أن نعيش في منفى . . ولا نشعر أننا بشر؟ .

- قلت : إنك لا تشعر بفراغ . . الوقت والمال والمجد يملآن

حياتك . .

- لا أعنى ذلك تماماً يا عزيزتى . . مهما امتلأ وقتنا فهناك

جانب فينا يشعر دائماً بالفراغ والضيق أعنى تلك الروح التي

تسكن أجسادنا، إنها لا تمتلئ بمثل هذا النوع من الحياة . .
أظنها تحتاج إلى لمسات سحرية . . إلى أنامل عذراء حلوة
تهدهدها . .

فابتسمت منال وقد توردت وجتها:

- إنك فى لحظة تجل . .

- بل فى نوبة حمى أذهبت عقلى . . أعطنى شفتيك . .

واحتواها بين ذراعيه فى قسوة، وشفته تدوران فوق
وجهها، ومنال تتململ تحاول أن تحرر نفسها من ذراعيه
الغليظين اللذين يكسوهما شعر غزير، والعرق يسيل فوق
جبينه الذى يكاد يتفجر منه الدم . . ورائحة العرق تنبعث إلى
خيائيمها فتهمز مقاومتها وعنادها . . كان رجلاً . . وكانت
امراً . . وإن لم يكن بينهما فيما مضى حب ماض عميق
الجدور . . واستسلمت له غير آسفة . . تماماً مثلنا فعلت ذات
مرة وهى فى السنوات الأولى فى مدرسة الحكيات بالقصر
العينى . . ذات ليلة وكانت نوبتجيتها فى المساء . . وطبيب
امتياز غض جذاب . . شدها إليه، فخافت أن تصرخ أو
تستنجد . . فنامت على صدره . . وبدا الأمر بعد ذلك أمراً
عادياً لا يثير ألماً . . بل يثير ذكرى حلوة تسكر . . ومثلها كانت
فتيات مدرسة الحكيمات . . لكل منهن قصة حب، ومن ليست

لها قصة كان عليها أن تفتعل حباً . . وتسهر الليل وتستغرق في التفكير . . وتتأوه وتتنهد، وتوهم الجميع بأنها غارقة لشوشتها في الحب، حتى لا تكون أمام زميلاتها ناقصة .



وأفاقت منال من أحلامها على صوت عبد المعطى الذى ظهر فجأة، وهو يقول وقد رفع يده وفيها خطاب أزرق يقرأ غلافه :

- الآنسة منال عبد المجيد . . حكيمة بمستشفى الوحدة الجمعية بشرشابة . . خصوصى . . ليدها .

وانتفضت منال واقفة وموج متلاطم من المشاعر يزخر به قلبها، واندفعت إلى عبد المعطى ودموع الفرح تشرق في أهدابها السمراء الجميلة، وكلمات أفلتت منها «يا حبيبتي يا ماما . . وحشتيني يا حبيبتي . .»، واختلطت الخطاب منه، وقبلته في حرارة ثم ضمته إلى صدرها في حنان بالغ، والطبيب ينظر إليها في بلاهة، وعبد المعطى قد بقى مكانه وكأنه أتى ما لم تستطعه الأوائل والأواخر، وحقق عملاً رائعاً يحسد عليه، ويجعله في مقدمة المعجيين والعاشقين . . وأخذ يفرك يديه في سعادة، وفمه قد اتسع، وانفرج عن أسنانه البيضاء اللامعة، وبقي هكذا لحظات يتمنى لو طالبت أبد الدهر . . ومنال تغمض عينيها وتضم الخطاب إلى صدرها مرة

وإلى شفيتها مرة أخرى، وعشرات الانفعالات تتوارد على صفحة وجهها النابض بالحياة والروعة.. ثم انفلتت من الحجرة، وذهبت إلى مسكنها لقراءة خطاب أمها في جو هادئ لا يقطع عليها استمتاعها تحيات المعجبين بمناسبة وغير مناسبة، أو استفسارات المرضى التي تبلغ في كثير من الأحيان حد الإلحاح السمج والغباء المتحكم، ومداعبات الطبيب التي لا تنتهى، وما كادت تخرج حتى رأت عبد المعطى يلاحقها:

- إلى أين؟؟.

- إلى حيث تذهين..

- عجب أمرك.. هذا سكن خاص بالنساء..

- وماذا فى ذلك؟؟ كيف أتركك هكذا وأنت فى هذه

الحالة..

فأمسكت بيده وأوقفته ثم قالت وهى تقرصه من خده

الشاحب:

- لا.. هذا عيب.. وأنت سيد العارفين.. لا يقرب

الرجال مثل هذا المكان.. انتظر حتى أعود..

وبقى عبد المعطى فى مكانه لا يغادره، ومن أن لآخر

يتحسس خده الذى قرصته منه، ثم ينظر إلى يده التى

لامستها، ويدوب فى مشاعره الوردية، ويخيل إليه أنه يلقي

برأسه على صدر حنون دافئ فيه حب وحياة وسكينة، ويتسع
 فم عبد المعطى بابتسامه تنبع من أعماقه، وتشرق عيناه دموع
 الفرح، ويدور والشمس من حوله تنير المكان وكأنه رجل
 جديد.. أين ذهبت تلك الأيام.. الأيام التي لم يكن له فيها
 عمل سوى أن يفكر فى أعدائه والذين أهانوه أو سخرُوا منه؟؟
 وأين الليالى الطويلة التي لم يكن يحلم فيها بغير تدبيج
 الشكاوى القاسية، ورفعها للمستولين، والأخذ بخناق كل من
 أخطأ، وبث الذعر والقلق فى نفوس الكثيرين.. ها هو النهار
 كله يمر لا يغادر المستشفى، فإذا جاء الليل عاد إلى حجرته
 وأغلقها على نفسه مستمتعاً بالتفكير فى منال، لقد أدمن
 التفكير فيها حتى أصبحت لديه كل شىء.. وتكومت أوراقه
 وعرائضه فى ركن قصى لم يعد يقترب منها، وجلبابه
 الرخيص المخطط قد اتخذ مكان جلبابه الصوفى فوق
 المشجب، لقد أصبح يلبس طاقم المناسبات كل يوم، وكيف
 يرضى لنفسه أن يقابل الست منال وهو فى ثوب رخيص لا
 يليق؟؟ وعندما ينام يطبق جفنيه على صورة أحلى شىء فى
 الوجود، وإذا ما أشرق الصباح تناول فطوره على عجل،
 وهرول إلى المستشفى وشىء يجذبه إليها جذباً.. والناس
 يقولون إن عبد المعطى قد أصبح فى حال غير الحال، فالطبيب
 يغدق عليه المال الوفير، والمرضى يوسطونه فى شئونهم

العلاجية، ومنال تستخدمه فى قضاء حاجاتها ولا شك أنها تعطيه بعض القروش، كانت نظرتهم إليه فى حدود كسبه المادى، أما الحب.. فلم يكن أحد يفكر فيه.. كأن شيئاً لا يخطرهم على بال، ومسألة جمال منال وحبها أمر مشاع.. الكل يعشقون جمالها، يحبونها وبيتسمون لها، ولا يرفضون لها طلباً.

وحينما عادت منال بعد أن قرأت خطاب أمها فى عزلتها.. كان عبد المعطى لا يزال واقفاً وأضواء السعادة تتراقص فوق ملامحه الصفراء، والبسمة الكبيرة تملو شفثيه، وقلبه يدق فى سعادة فياضة دقائق متلاحقة أرهفت شعوره، وجعلت روحه أكثر شفافية، وأكثر تحليقاً فى الأجواء الوردية السماوية، وصحا من خواطره على منال وهى تقذف إليه بقطعة فضية من ذات الخمسة قروش وتقول:

- أشكرك من كل قلبى..

وهبط عبد المتجلى لتوه من الأجواء الوردية، وارتطمت أجلامه المعلقة بالأرض الصلبة القاسية التى يغطيها التراب والطين، وانطفأت الابتسامة من فوق شفثيه، وأظلم وجهه، ولفته كآبة قاسية، والتفت إليها وهى تمرق إلى جواره مندفة إلى المستشفى:

- ما هذا يا ست منال؟

- هذا من أجلك تستاهل كل خير يا عبد المعطى .. ألا
تتصور أن هذا الخطاب الذى أحضرته قد رد إلى الروح ..
وأسرعت ناحية المستشفى وبقي واقفاً فى جمود ..

إنها تعطيه «بقشيش»، تماماً مثلما تفعل مع خفراء المستشفى
والتومرجية وفقراء القرية الذين يأتون لكل موظف أنيق،
ويقولون فى ضراعة: «حاجة لله يا ست ..» يا لله!! أصبح عبد
المعطى فى عداد الخفراء والتومرجية والمتسولين!! «سامحك
الله يا ست منال .. ما كنت أظن أنك ستفعلينها ذات يوم .. أنا
أريد قلبك وأنت تصفعيننى هذه الصفعة .. تعطينى قطعة
فضية يا ذات القلب الذهبى ..»

ودار عبد المعطى بنظراته الكليلة الحزينة فى أرجاء المبنى
الكبير، مدرسو المدرسة الابتدائية يروحون ويجيئون،
والأطفال الصغار يحملون حقائبهم ويتسابقون أو
يتصارعون .. والمشرف الاجتماعى يمشى فى تؤدة ووقار
مألوفين، ولح أيضاً منال تتقل من العيادة إلى القسم الداخلى
وإلى جوارها يمشى الطبيب وهو يتسم لها من أن لآخر،
ومرت مسرعة- هى وهو- كالظل الخفيف النضر الذى يخلف
وراءه رائحة وجلالاً وذكرى، وحينما تواريا داخل القسم

الداخلى ، جر عبد المعطى هيكله وحطامه وعاد أدراجه ناحية باب المستشفى والهم الثقيل يجثم فوق قلبه وروحه ، وأحس أنه فى تلك اللحظات أكثر شحوباً وأشد إدراكاً لما يعاينه من مرض . . واعترضت طريقه امرأة باكية قائلة :

- سى عبد المعطى . . فى عرضك . . الولد محموم . . جسمه يغلى . . خذ الكشف . . وهات الدكتور حالا . . اعمل معروفاً . .

ونحاهما عبد المعطى جانباً ، ومضى فى طريقة كالذهول وهو يغتمغم :

- اذهبى إليه يا امرأة . . الطبيب هناك . . الشافى هو الله . . الشافى هو الله . .





توثقت العلاقة فى الأيام التالية بين الست الحكيمة، والمعلم حامد المليجى صاحب المقهى الريفى المجاور للوحدة، وكان لهذه العلاقة المتينة أكثر من سبب، فمنال منذ أن نزلت القرية أفصح لها المعلم فى قلبه منزلة كبيرة، وأصبحت وجبة الفطور والشاى باللبن فى الصباح تقليداً متبعاً، وفى الوقت نفسه كان المعلم حامد هو متعهد توريد التغذية، وتلك عملية شائكة صعبة لن تذلل وتسير على ما يرام إلا إذا كانت علاقته مع الطبيب والحكيمة غاية فى القوة والمتانة، ولو أدى الأمر لأن يكون المعلم سخيّاً . . سخيّاً جداً . . يحاول أن يشتري رضى من ييدهم الأمر، وكانت منال هى أهم شخصية بالنسبة لهذا الموضوع . . نقطة أخرى جديرة بالاعتبار وهى أن المعلم حامد المليجى منذ أن رأى منال لأول مرة مالت نفسه إليها، وبات هو الآخر أسير هواها، مثل عشرات غيره من أهل القرية أولئك الذين لم يجدوا سبباً من أسباب الاتصال بها، أما منال فقد

وجدت فيه رجلاً أنيقاً رقيقاً خفيف الظل ، يحافظ دائماً على أن يحلق ذقنه كل صباح ، ويرتدى جلباباً حريراً أبيض ، ويحيط موكبه كلما راح أو جاء عدد من الرجال . . من الأتباع ، وكان سريع النكته ، فى عينيه السوداوين سحر وقوة لا تقاومان ، ووميض عجيب ، وكانت منال إزاء هاتين العينين متناقضة المشاعر ، أحياناً تذوب فيهما روحها كامراً ناضجة تصرخ فيها الأنوثة ، وأحياناً أخرى تخاف بريق نظراته ، وكان خلاصة هذا كله أن المعلم الشاب الذى لا يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره بات أثيراً لديها ، تحب مجلسه ودعاباته ، وتنشئ على غيرته عليها وهو يدفع عنها المعجبين وأدعياء الشهامة والرجولة ، ويقطع عليهم سخافاتهم وغزلهم السمج من آن لآخر . .

جاء المعلم حامد ليورد الأغذية كالمعتاد ، وطلب من الطبيب أن يصحبه كى يوقع على كشف الاستلام ، وقال الطبيب :
- أنا مشغول الآن ، وأعتقد أن منال سوف تتسلم الغذاء نيابة عنى . .

فالتفت المعلم إليها قائلاً وهو يتسم ويحرك يديه وأصابعه بطريقة تمثيلية :

- نهارنا نادى . . يا صباح الفل والياسمين . .

وأخذت منال تمر بين الأقفاص والجوالات الممتلئة بالخضراوات والأرز والفواكه والأرغفة والبيض واللحم، كانت تتهاذى فى بطن كالدودة البانعة، خطواتها خطوات أميرة يحيطها جو المهابة والسحر والجمال، والمعلم أمامها مثل البهلوان تماماً: «هذا البيض يا ست طازج.. اللحم ريقها مثل العسل.. الخبز طازج أربعة وعشرين قيراطاً.. الباذلاء لوز.. جواهر»، يتعمد المعلم أن يمسك بيدها ويشدها فى رقة ليربها هذا، ثم يؤكد لها أن ذلك من الأطعمة لا عيب فيه، ويختطف عنقوداً من العنب ويقسم بالله أن تتناول منه حبات حتى تتأكد من صدق كلامه، ويظل المعلم هكذا يشنى وينفرد، ويميل برقبته ثم يقيمها، ويحرك حاجبيه فى سعة دون تكلف، ونظراته النارية التى تذيب أنوثتها أحياناً وتخيفها أحياناً أخرى تتماوج كالرادار، وجلبابه الحريري الأبيض يرتجف فى نعومة، وترعشه مسأت النسيم الهادئ، والمعلم بوجهه اللامع الخلق، وسمته المتناسق التقاطيع، يبدو رجلاً ريفياً أصيلاً، صوته صوت رجل، وذراعه السمراء لو وضعها فى وسطها لبدت وكأنها طوق النجاة، لشد ما أعجبت به منال، وأتاحت نفسها إليه، لكن شيئاً ما كان يقف بينهما، شيئاً مميزاً يظل قائماً فى تحدٍّ مثير، هذا الشيء هو غالباً حاجز يقف بين القرية والمدينة.. بين شرشابة والقاهرة، بين فتى الريف صاحب

الجلباب الحريرى الفضفاض وفتاة المدينة التى ينحسر ثوبها إلى ما تحت ركيبتها وترفع رأسها وعينيها الجريئتين إلى أى وافد، دون أن يخالطها شيء من خجل، أو يشوب تصرفاتها بعض الارتباك . . وهكذا كانت منال تبتعد عنه وهى تظن أنها تقترب منه، وهو الآخر كان أضعف . . أعنى . . أجبن من أن يرفع معوله ويحطم الحاجز القائم بينهما، وبقي الحال هكذا رغم الصبى الذى يحضر لها فطور المعلم كل صباح . . لم تكن تحس مثل هذا الفارق أو الحاجز القائم بينهما مع الطبيب، كان الطبيب أقرب إلى نفسها بثقافته ونشأته فى المدينة، وسرعة اندماجه معها، لم يكن هناك غير خجل مصطنع وستار شفاف بينهما، وما أيسر أن مد الطبيب يده فى لمح البصر ومزق الستار الشفاف ذات ليلة فى بساطة عجيبة، وحينما حاولت أن تقاوم نزواته، وتفلت منه قبض عليها بذراعيه والليل ساج، والنوم يداعب أجفانه والفراغ الممتد امتداد الليل تحول إلى مشاعر هائجة وقبلات عنيفة - لا بين حبيب وحبيبته - ولكن بين رجل وامرأة . . كانا غريبين فى قرية نساؤها خوف وخجل، ورجالها احتشام وانشغال بلقمة العيش .



قالت الحكيمة للطبيب :

- إن المعلم حامد يصبر على أن يصحبنى إلى بيته . .

فهز الطبيب رأسه كمن يزعم أنه خبير بيوطن الأمور،
وقال:

- لماذا؟؟

- زوجته حامل ويريدنى أن أراها..

- أعتقد أن هذا عملى أنا يا منال..

- الأمر أمرك..

وسكت كلاهما، بينما كان المعلم حامد فى ذلك الوقت
ينظم بيته، ويفرش الملاءات النظيفة البيضاء فوق السرير،
ويدفع زوجته أو يركلها- رغم أنها حامل- ويطلب منها أن
تسارع بتنظيف البيت، وتحبس الدجاج فى أقفاسه، وتحفف
العطن المنبعث من تحت الجرار الممتلئة، وتقذف بتلك القلة
المكسورة إلى الجحيم، وصرخت زوجته فى ضيق:

- ما هذا كله يا معلم؟ وزير حاضر لزيارتنا ولا..

- اخرسى قطع لسانك.. قليلة الأدب.. حتى أنت يا أم
العز.. يا فقر يا بنت ال..

وأهوى بكفه الغليظة على قفاها، فاستمرت فى عملها فى
صمت، ومراجل الغضب العنيف تشور فى نفسها، وتلفح
كيانها، لكن ماذا تفعل؟؟ إنها دائماً تؤثر الصمت وتقبل الهزيمة

كلما دب بينهما خلاف ، أو نشبت بينهما معركة ، والمعلم على حد تعبيرها «مسكين وابن حلال . . ورجل طيب» رغم حدة مزاجه وقسوته عليها . .

وفي المستشفى كان الطبيب لا يزال جالساً ، ومنال إلى جواره صامتة بعد ذلك الحديث القصير عن المعلم ، وهمّ الطبيب بالقيام أخيراً ، ثم قال :

- يا منال يجب أن تعرفى حقيقة واقعية . .

- هى . .

- هى أن المعلم حامد المليجى . . رجل مريب . .

- كيف ؟ .

- الناس هنا لا يعرفون له بطناً من ظهر . . ثم . . ثم إنه .

- ماذا يا دكتور ؟

- من كبار تجار المخدرات فى المنطقة . . هذا الرجل الرقيق

الباسم الناعم الملمس يخفى وراء سماحته ورقته قلباً جسوراً لا

يرحم إنهم يطلقون عليه «الوحش» . . لعلك تساءلت ذات يوم

لماذا أتعامل معه وأقبل هداياه التى ليست إلا رشوة مقنعة . .

بصراحة أنا غريب . . ليس لى عصبية . . والغرباء لا

يستطيعون أن يمسخوا عن نفوسهم مشاعر الخوف والألم .

- أتخافه؟

- ولمَ لا؟؟ أنا هنا أشتري رضى الناس أيضاً . . أجيـب
مطالبهم فى حدود طاقتى ومنفعتى . .

- نحن فى مجتمع له نظمه وقوانينه . . ولن يأكل أحد
أحدًا . .

- هذا صحيح يا منال . . لكن حامد وأمـثاله ما زالوا
يعيشون بعقلية قديمة نوعاً ما . . يظن أن المال يصنع
المستحيل . . وكبار الموظفين فى هذه المنطقة يحمون أمثاله منذ
زمن بعيد . . وهذا تقليد قديم لأسباب سياسية وحزبية عميقة
الجلذور . .

وامتلأت نفس منال بالهواجس ، وشعرت بخوف غامض
يسرى بين جوانحها ، وتصورت الريف بأهله الودعاء البسطاء
مكمنًا للغدر والرغبة والتعقيد ، لم تكن تظن ذلك ، كانت
تحسب نفسها ستكون دكتاتوراً صغيراً تبسط سلطان جمالها على
الجميع وتحرك جموعهم كيف شاءت ، وقالت منال للطبيب :

- أصبحت أخاف هؤلاء الناس . .

- اجتمعت لديك آلام الغربة والخوف . .

- بالضبط . . هذا ما حدث . .

فهز الطبيب رأسه ، وقال فى نبرات رزينة :

- هنا فى القرية حكمة قديمة تقول : «امش فى طريقك المسقيم يختار عدوك فيك . . » .

- وهل من الاستقامة أن تقبل الرشوة المقنعة . . ونصير عبيداً للمعلم . .

فضحك الطبيب . . ثم أخرج سيجاراً وأشعلها وهو يقول :
- الاستقامة مسألة نسبية . .

- ماذا تعنى؟؟

فلم يجب ، بل أخذ يبعث بأنفاس الدخان فى شئ من الشراهة ، ثم غمغم :

- لن يمر وقت طويل حتى تصبح من أهل القرية . . هؤلاء الفلاحون سريعو الألفة والاندماج ، والطبيب عندهم مثل شيخ الطريقة الصوفية . . رجل يهب الشفاء . . فيه روح من روح الله .



وفى المساء جاء المعلم حامداً ، وقصد لتوه المكان الذى تجلس فيه منال فى القسم الداخلى بالمستشفى جوار المرضى ، كانت تجلس على كرسى أبيض أمام باب العنبر ، والضوء الباهت يشيع سكوناً وسقماً فى النفوس ، وعدد من الفلاحين الشاحبي

الوجوه يستلقى على السرير فى ترقب، وعلامات الألم والغضاضة ترسم على محياهم:

- مساء الخير يا ست . .

- مساء الخير يا معلم . .

- هل نسيت الميعاد؟؟

- كلا . . لكن . .

- لكن ماذا؟؟ المعلم حامد لا يقبل عذراً . .

- الطبيب قد يسافر الليلة، وليس مع المرضى أحد . .

- قد يكون هذا عذراً وجيهاً . . وهو لن يسافر . . ماذا

يقول الفلاحون عنى وقد هيات بيتى وكأنه يستقبل الليلة عروساً؟؟ لا شك أنهم سوف يضحكون منى . . ويجعلوننى مناط الهزء والسخرية، والمعلم حامد لا يصح أن يكون كذلك . . ثم إن زوجتى متعبة . . وأم العز غالية عندى جداً، ومن يتسبب فى إحراج أم العز والإساءة إليها يحرجنى ويسىء إلى أنا الآخر . .

ورفعت عينيها إليه، كانت الابتسامة الواثقة تتماوج فوق ثغره كما يتماوج ثوبه الحريري، وعيناه ترسلان نظراتهما المثيرة المخيفة فى الوقت نفسه، ووجهه المستطيل القمحي اللون يبدو

تحت الضوء كتمثال من النحاس صامد . . صلد . . وكأنه يقول
لها : إذا تزحزحت الصخرة فلن أتزحزح قبل أن آخذك معي ،
ولندائه الصامت فى نفسها رنين قوى ، وفى روحها استجابة لا
تغلب ، وهبت واقفة :

- سأتى معك يا معلم . .

وفى شوارع القرية وحاراتها المظلمة كانت تدب أربعة
أقدام ؛ المعلم وإلى جواره منال تسير مرفوعة الرأس ، وكان
طول الإرهاق والتفكير والإشفاق قد أورثتها مشاعر جديدة . .
مشاعر عناد ولا مبالة . . وعيون من خلف النوافذ والأبواب
وفى الطريق العام كانت تسترق النظرات ، الأميرة الرقيقة تسير
فى حماية «الوحش» . . جوهرة يوشك ثعبان أن يخنطفها . .
الأصابع الملوثة بالحشيش والأفيون قد تلوث هذه البشرة
الناعمة الرقيقة التى صنعتها القاهرة بأنغامها وجمالها
وروعتها . . مدد يا سيدة زينب يا أم العواجز . .

وفى الطريق كانت أضواء باهرة تأخذ بالأنظار ، والرصاص
يزغرد فى جنبات السماء ، وجموع من النساء والرجال
والأطفال يحتشدون حول رجل فقيه يلبس عمامة ويقوم
بشعائر الرباط المقدس كى يتم الزواج بين اثنين ، وأصوات
نساء ترتفع بالغناء :

«هاتوا الذهب وكيّلوا بالكيلة..

ما هش خسارة فى بياض الليلة..

هاتوا الذهب وشعّتروا على الأرض..

ما هش خسارة فى بياض العرض...»

وقال المعلم :

- يجب أن ننحرف عن هذا الطريق ..

- لماذا؟؟

- حتى لا يرانا الناس ..

- وماذا فى ذلك؟ نحن لا نسرق .. والطريق العام من حق

الجميع .. كل واحد فى حاله ..

فابتسم المعلم فى سداجة مصطنعة، وقال :

- معقول، لكن ماذا تفعلين وعيونهم ترشقك من كل مكان

وتظل تتبعك حتى تختفى...؟؟.

- لا شىء..

- أما أنا فسوف أقتلع أى عين تفعل ذلك ..

فغمغمت بدون وعى :

- الوحش ..

وعندما سمع المعلم منها هذه الكلمة انفجر ضاحكًا ضحكًا مكتومًا، ثم جذبها من يدها إلى طريق جانبي مظلم، وهي تتبعه دون أن تبدى شيئًا من الاعتراض، وطلقات الرصاص في حفل الزفاف ما زالت تزغرد في الآفاق وتختلط بصيحات الأطفال، وغناء النسوة..



تلفتت منال حولها - وهى فى بيت حامد المليجى - وشملت
 المكان بنظراتها الفضولية، حجرة الاستقبال جميلة، فاخرة
 الأثاث، حتى التماثيل الخزفية موجودة بها، وصورة ضخمة
 للمعلم حامد وهو يمسك بعصاه المعوجة معلقة على الحائط،
 وعلى رف خشبى مذياع كبير الحجم، ومطربة معروفة تترنم
 بأغنية «من بعيد يا حبيبى . .»، ودخلت امرأة ريفية تتعثر فى
 حياتها وخجلها . . وتلف شالها الأسمر الحريري فوق رأسها
 وحول عنقها والنصف الأسفل من وجهها، وتمت فى
 ارتباك: «زارنا النبى يا ست الحكيمة . . نورك ملأ البيت: . .»،
 واختطفت يد منال لتقبلها تاركة منال فى حيرة من أمرها وقهقهه
 المعلم حامد بينما قالت منال:

- مَنْ هذه؟؟

فردت المرأة:

- خادمك أم العز .

وأتبعها حامد بقوله :

- زوجتى .. الأشغال الشاقة المؤبدة التى حكم بها أبى على
رحمه الله .. زواج بدل ..

وغرقت المرأة فى خجلها من جديد، ولم يبد عليها أنها
تألمت أو تأثرت لكلمات زوجها وكأن هذا الكلام شىء مكرر
معاد ألفته من زمن بعيد، أو لعلها تؤمن أن ضمن الحقوق
الزوجية المقدسة أن يسخر منها زوجها ويسبها ويعرض بها
دون أن تتمرد أو تثور .. ورفعت منال نظراتها إلى «أم العز»
من جديد، كانت تميل إلى السمينة، أثار الحمل تبدو على
بطنها، وعقد من الكارم الأصفر يزين صدرها، خلف شالها
الشفاف، والقرط الذهبى الدائرى الكبير يتدلى من أذنيها،
والكحل الأسود يطلّى عينيها فى غير نظام أو أناقة، لكن
عينيها كانتا كبيرتين فانتين كعيني البقر الوحشى، وعنقها ممتلئ
بض .. ولفمها شفتان دسمتان ذواتا جاذبية خاصة كانت
جميلة حقًا، وهتفت منال :

- زوجتك جميلة جدًا يا معلم ..

فرد المعلم وهو يشير بيديه فى حركات تمثيلية :

- ربما .. لكنها لا تصلح إلا للأعياد والمواسم .. مثل
النعاج تمامًا.

وكم كانت دهشة منال حينما رأت أم العز تضحك،
تضحك من أعماقها البيضاء، وتدبر رأسها فى حياء، ويهتز
جسدها المكتنز تحت تأثير ضحكاتها، وتقول:

- يطول عمرك يا سى حامد.

- ثور الله فى برسيمه . . يا أم العز . . تحركى يا امرأة . .
أين الشربات . . ؟؟

- من عيني حالا.

وخرجت أم العز وتركتهما، ولم تكن منال قد أفافت من
دهشتها تماماً، كانت تفكر فى تلك الريفية الساذجة الجميلة،
والتي لا تشور من جارح الكلام، أو تتألم لوقع سخریات
زوجها. نعاج . . ثيران . . أشغال شاقة . . تلك هى
التشييات التي يطلقها عليها زوجها، وهى تبش له، وتبتسم
لسياطه القاسية، وكأنها تستمع لعبارات الغزل الرقيقة التي
تبعث النشوة والسعادة بين جوانحها، وكانت منال تفكر أيضاً
فى المعلم حامد الذى لا يتحدث عن زوجته إلا سباباً ونهشاً
وسخرية، وفى الوقت نفسه يتحدث إلى منال فى رقة . .
وأدب، وتوسل فى بعض الأحيان . . وصحت منال من
أحلامها على يد المعلم تقبض على معصمها ويجذبها إليه فى
إبتسامة عذبة، ويقول:

- لا بد أن أضع هذا السوار الذهبى بنفسى حول معصمك . .

وارتجفت منال حينما باغتتها المفاجأة، لكنها عادت إلى شىء من الهدوء حينما رأت أن الأمر لا يعدو أن يكون سواراً يوضع فى يدها، ومع ذلك سحبت يدها منه، وهى تقول:

- ما هذا يا معلم . . ؟ .

فضحك فى ثقة واعتداد وهو يقول:

- هدية . . مجرد هدية متواضعة .

- لكن ما مناسبتها؟؟

- لا أدرى بالضبط . . لكن ألا تعتقدين أن الهدية قد تكون بداية لعهد جديد من الألفة والصدقة؟؟ أنت ضيفة على قريتنا، والهدية وسيلة من وسائل التعارف . . أليس كذلك؟؟

واستعادت «منال» ما قاله لها الطبيب بالأمس القريب عن المعلم جامد، وطريقته فى الحياة، وشرائه للذم، وكيف أن هداياه عبارة عن رشوة مقنعة . . ومن يقبلها لابد أن يقوم بخدمته ويسهل له أموره، ومن لا يقبلها يعرض نفسه للخطر والفضائح، واجتاحت منال موجة طارئة من الحماسة، وقالت:

- لا أقبل . .

فلم يزايله هدوؤه المعتاد، بل بقى السوار فى يده، وقال
منبسطاً :

- ولم ؟؟

- صداقتنا ليست فى حاجة إلى توطيد . . إنها وثيقة . . ثم
أن أم العز أولى بهذا السوار منى .

فضحك المعلم ضحكات عالية، وقال :

- أم العز تحتاج إلى خلخال نحاسى وزن ثقيل . . هذه
الأشياء الرقيقة ليست لها . .

وصمت المعلم فترة، ونظراته القوية المخيفة مسددة إلى
منال، وقال :

- قولى كلاماً غير هذا . .

- لا يصح أن أقوله . .

لا تخرجنى . .

لقد جئت لأكشف على زوجك الحامل .

- سوف تفعلين .

- وثانياً أنا لا أقبل الرشوة . . ولو قطعت رقبتى . .

واهتز المعلم فى نشوة لشجاعتها الطارئة، إن المعلم أمره
عجيب، إنه يستمتع بعض الأحيان بتحدى الغير له . . إن ذلك

مصدر لذة فائقة، لا تعادلها أنفاس الحشيش التي تبعث الخدر والنشوة الزائفة في كيانه، وتغنى في هذه اللحظات أن ينقض عليها، ويطويها بين ذراعيه القويتين، ويعتصرها عصراً، لكن ليس الآن.. إن شيئاً ما لم يزل يفصل بينها وبينه، ولو كانت مثل أم العز لكنس بها الأرض.. ثم احتضنها وقبلها.. هكذا.. كلاهما أنثى.. لكن منال أنثى من نوع آخر..

- أتقولين رشوة؟؟

هذا تفسير سيئ للهدية.. ربما أغتفره لإنسان جاهل خبيث الطوية، لكن من الآنسة منال.. فهو مؤلم.. مؤلم حقاً.. وهذا يجعلني أفكر في الانتقام فوراً..

وأدارت منال رأسها بسرعة، وقد ارتسم الخوف في عينيها:

- تنتقم؟؟

- أجل.. وهذا هو انتقامي..

وأمسك بمعصمها من جديد وقد شحب وجهها وارتجفت كل عضلة في جسدها، وفكرت في أن تصرخ وتستنجد، لكن الصرخة ماتت بين شفتيها حينما رأت المعلم يبتسم، ويضع السوار في هدوء وثبات، وهو يقول:

- إن انتقامي هو أن أرغمك على قبول الهدية.. النبي قبل

الهدية.

ودخلت أم العز تحمل أقداح الشربات الأحمر، وكان
خجلها قد زایلها بعض الشيء، وقالت وهي تضع الأقداح
أمام منال:

- لقد شرفت بيتنا.

وعندما حاولت منال أن تسألها عن الحمل وأعراضه،
والتاعب التي تتعرض لها، قطع المعلم حامد الحديث
صاحكاً، وقال:

- دعى هذا الآن... لا تقلقى عليها.. النساء هنا يلدن، ثم
يقمن بعملهن كالمعتاد.. يذهبن إلى الحقول، ويقمن بخدمة
أزواجهن، وينظفن البيت.. وأم العز بالذات تضع مولودها
بسرعة.

هذه الجاموسة لا تعرف المرض..

وتدخلت أم العز قائلة:

- ربنا يبارك فيك يا سى حامد..



كان الوقت متأخراً عندما عادت منال إلى المستشفى،
وقصدت من فورها عنبر المرضى، بعضهم لم يزل متيقظاً يتأوه
من شدة الأم، والبعض الآخر يطالب بما قرر له عقاقير، وقلة

منهم ناموا، وغطيطهم ينبعث كنغم نشاز، والمرضة الأخرى قد أسندت جبهتها فوق كرسى آخر، وراحت فى سبات عميق، ومن أن لآخر ترفع منال يدها وتحملق فى السوار الذهبى الذى تنعكس عليه الأضواء الباهتة فتصدر عنه إشعاعات صفراء . . وصورة المعلم حامد «الوحش» الناعم الملمس الذى يخفى مخالبه وأنيابه وراء مظهره الضاحك دائماً . . وصورة أم العز الجميلة، البضة السمينة، التى لا يبدو عليها أنها تعرف الحزن أو التمرد . . الصورتان تلحان عليها وترفضان أن تغادرا مخيلتها، ولم يطرأ على ذهنها لأول مرة صورة أمها وإخواتها فى القاهرة . . لقد استطاع مرور الزمن، وما مربها من أحداث وأجواء جديدة أن ينسيها بعض الشيء ذكريات القاهرة والأهل والأقارب وليالى القصر العينى، طرائف الحب هناك وعبث الشاب الذى يقف على عتبة المستقبل وفيه كثير من الثقة وكثير من القلق أيضاً . .

وسمعت منال ضجيجاً يقترب . .

ومع الضجيج والصيحات المختلطة كانت تنبث صرخات النسوة .

وفى لحظات كانت قد هبطت السلم . . وفى رحبة المستشفى جاء الطبيب والتقى بها وهو يغالب النوم ويمسح عن أجفانه ما علق بها من أحلام لم تكتمل . .

- ما هذا يا منال؟؟

- لا بد وأنها حادثة ..

- فى هذا الوقت المتأخر؟؟

- الكوارث لا وقت لها .. إنها كالقضاء والقدر ..

وامتلأت رحبة المستشفى بالنساء والرجال والأطفال ، لم يستطع الطبيب أن يعى ما يقال ، بالرغم من أن النوم قد طار تماماً عن عينيه ، وفى حجرة العمليات رقد أربعة رجال جرحى .. أحدهم فى حالة خطيرة .. «يجب أن ينقل إلى المستشفى المركزى فوراً ، يحتاج لعملية استكشاف .. والثلاثة أمرهم بسيط ، وغرز قليلة بالسلك .. ثم غسل الجروح بمادة مطهرة وإعطاء بعض الحقن .. » ، هذا ما قاله الطبيب لمنال التى تقف إلى جواره ، والضجيج لم يزل ينبعث خارج الحجرة ، ورجال يتوعدون ، ونساء يشهقن بالبكاء .. وبدأ أن القرية كلها قد هبت من نومها مذعورة .. وأجريت الإسعافات اللازمة للثلاثة ، أما الرجل الآخر فقد كان فى حالة سيئة جداً رأسه ينزف دماً غزيراً .. لا يتكلم البتة .. إنه فى غيبوبة مستمرة هذا ينذر بالخطر .. وقلوب تخفق بالخوف والغضب والوعيد تقف بباب حجرة العمليات ، وصوت جهير يرن فى أذن الطبيب بعد أن فتح باب حجرة العمليات عنوة : « .. من جنيته لألف يا

دكتور . . أنقذ حياته وخذ ما تشاء . . مستعد أبيع عمري ،
وينجو ابني . . إنه ولدى الوحيد فى عرضك يا دكتور . . « .

لكن الرجل مات . . مات قبل أن ينقل إلى المستشفى
المركزى . . ولم تجد الإسعافات الأولية فى إنقاذ حياته ، وأبوه
أخذ يعول كالنساء فى الخارج . . ومن خلال الدموع
والصرخات وعويل النساء ، التقطت أذن الطبيب عبارات فهم
منها شيئاً . . «لعنة الله على النساء . . ليس وراءهن غير خراب
البيوت . . « .

وجاء المعلم حامد ، لم تستطع الكارثة التى أذهلت جميع
أهالى شرشابة أن تطفى الابتسامة التى تبدو وكأنها خلقت
معه . . وكأنها جزء من ملامحه وتقاطيع وجهه ، وكشف
الستار عن الحادثة حيث قال :

- فتاة صغيرة ذات مال . . تقدم لها اثنان . . نجح واحد ،
وأوصد الباب فى وجه الآخر . . وأحنقت الهزيمة الفتى
المطروود . . ومن هنا جاءت الكارثة ، وسالت الدماء ، الناس
هنا يحبون قصص «أبو زيد الهلالي» و «الزير سالم»
و «ناعسة» . .

وقالت منال :

- لكن من الذى مات ؟

- الذى انتصر فى معركة الزواج . .

- مسكين . . ليت له لم ينتصر . .

وتمت المعلم :

- كل شىء مكتوب . .

- لن يتزوجها القاتل ولا القاتل . .

- أجل . . إنها لإنسان آخر غيرهما . . والذى حدث بداية
لزوج لم يخطر على بالهما .

ولم تنم القرية . . وجلجل صوت المؤذن لصلاة الفجر
كالعادة . .

وأشباح تدق الأرض بأقدامها الحافية المتشقة، وتنطلق
صوب المسجد، وشيوخ يسعون، ويستندون على عصيهم
العتيقة، ورجل يمر بالشوارع يوقظ الناس للصلاة «يا عباد
الله . . قوموا اذكروا الله . . الصلاة . . الصلاة . . يا مؤمنين
الصلاة . .

يا نائمًا كيف المنام يطيب

الموت حق والفراق صعب

ولصوت المترنم نغمة أخاذة تهز القلوب، وتطلق الدموع،
ويمتلئ أفق الصباح الوليد بزفرات الشوق والحنين، وبضجيج

الدعوات الحارة التي تنبعث من الأعماق «يا رزاق ارزقنا . .
اللهم اكفنا شر المصائب يا رب . . يا رب . .» .
والطبيب قد ألقى برأسه فوق مكتبه ونام . .
ومنال تسللت إلى حجرتها ، واستلقت فوق سريرها . .
وارتمت إلى جوارها يدها . . وفي المعصم سوار . . سوار ذهبي
لا ينطفئ بريقه . .





لم تمر زيارة «منال» للمعلم فى بيته مروراً عابراً، بل تناقلها أهل القرية بالشك والريبة، قال قائل : إنها زيارة بريئة لا أكثر، وأين المعلم فى دنياه الصاخبة بالحشيش والأفيون والتجارات من دنيا منال الفتاة المتعلمة، القوية الشخصية التى لا تستطيع يد أن تمتد إليها بسوء، أو يعاملها أحد بخبث؟ وقال آخرون : إن المعلم حامد داهية لا يشق له غبار، وليست هذه أول مرة يتعامل فيها مع نساء قادمات من المدينة، فقد أشاعوا من سنوات أنه كان على وشك الزواج من امرأة فى طنطا ويومها بكى أم العز بكاء مرأى، وشىء آخر مهم جداً هو أن المعلم يملك المال الوفير اللازم لشراء الذم والضمان والقلوب أيضاً . . . وبلغت مسامع عبد المعطى تلك الهمسات الآثمة . . . كان عبد المعطى قد عاد إلى بيته - بعد أن أسف لتصرف منال معه - وفى قلبه الكثير من الآلام والأحزان، وقصد من فوره إلى حجرته الخافتة الضوء، وعندما أغلق بابها خلفه، ترك العنان لدموعه، كان يشهق شهقات مكتومة يرتجف لها كيانه كله، وسرعان ما

زايله انفعاله وأخذ يعود إلى هدوئه رويداً رويداً، لكن فى قلبه جرحاً حديثاً ليس من المعقول أن يندمل سريعاً، وخلع جلبابه الصوفى وباقى الطاقم الذى خصصه للمناسبات، وأبقى فوق جسده قميصاً أبيض، وارتمى فى ركن الحجرة عارى الرأس . . . ولم يستطع الضوء الخافت أن يخفى الشحوب البادى على وجهه، ثم غمغم فى أسى: «أهكذا تفعلينها يا منال؟؟؟» سامحك الله . . أنت التى أعادت إلى الأمل فى الحب، وغسلت أدران قلبى، ووارت أحزانه . . فأصبح أبيض نظيفاً كاللبن الحليب . . أنت التى فعلت ذلك، ثم تأتين وتعطينى بقشيشاً . . حتى لكأنى خفير . . لكأنى رجل غريب تمام الغربية عنك، ليس بينى وبينك من صلة سوى صلة العمل؟ ألا تعلمين أن هذا يقتلنى يا منال . . لأنك أقرب إلى نفسى من أى إنسان آخر . . من أهلى . . وأصدقائى وحياتى . . بل أنت الأمل الكبير الذى أعيش فيه، وأحلم به؟ كانت بسمه واحدة كفيلة بأن تسعدنى وتفرح قلبى وليت تلك القطعة الفضية اللعينة بقادرة على أن تفعل شيئاً سوى أن تثير عجزى، وتجعلنى أحس أنك لم تزالى بعيدة عنى أميلاً وأميالاً، وإن كنت تعيشين فى حنايا قلبى . . فى روحي . . .»

وحاول عبد المعطى أن يقوم لكنه لم يستطع فقد دهمته آلام مبرحة فى أعلى بطنه ناحية اليمين، فوضع يده فوق الألم،

وأخذ يتأوه فى خفوت، ثم تمدد على حصيره الجافية، وأنفاسه تتلاحق، وقطرات من العرق البارد تقع فوق جبينه الشاحب، وتمتم فى صوت واهن ضعيف: «أمى.. أمى..»، ولكن لم يسمعه أحد، فثارت عواطفه من جديد، وبدا أكثر حساسية من ذى قبل.. أصبح طفلاً سريع الضحك.. سريع البكاء، من الميسور أن يتألم لأوهى سبب، ثم تستطيع أن نجعله يملأ المكان ضحكاً ومرحاً لأوهى سبب أيضاً.. وبقي عبد المعطى وحيداً فى حجرته يلوك أساه، ويجتر أحزانه، ويجفف دموعه التى تنسكب من أن لآخر فى صمت حزين.. ومريومان أو ثلاثة.. وعبد المعطى باق فى مكانه وحيداً، يحس أن قواه تخور يوماً عن يوم، وأن المرض يتفاقم وتزداد مضاعفاته، حتى أصبحت وجته أكثر بروزاً، وكذلك وشت عيناه الغائرتان بالكثير مما يقاسيه، وأزعجت أمه ملازمته للفراش، فأقبلت نحوه مهرولة، والطعام على يدها كالمعتاد:

- لن أقرب طعاماً يا أمى..

- ماذا أصابك يا ولدي!

- يخيل لى أن مرارتى سوف تنفجر..

فضربت بكفيها فى دهشة واستغراب، وقالت:

- باب النجار مكسور.. أليس كذلك؟؟ إنك صديق

حميم للطبيب والحكيمة، وتأخذ إليهما المرضى، وتتوسط

لهم، وأنت الجدير بكل رعاية، وتستحق العلاج الناجز السريع، وتنسى نفسك وتتجاهل ألامك وصحتك المندهورة.

وبلغ عبد المعطى أن الدكتور رمزى علم بمرضه وسأل عنه كثيراً، وحاول أن يستدعيه لكنه توقع أنه لا شك سوف يحضر إلى المستشفى للعلاج، وطال انتظار الطبيب دون جدوى، وفى هذه الأثناء كان هناك من يحل محل عبد المعطى لدى الطبيب، فاستطاع أن يشغل مكانه، ويقوم بما عليه من واجبات، ويكون هو الصلة بين المرضى والطبيب، وسمع عبد المعطى بذلك، وكان هذا كفيلاً بأن يثير حفيظته، ويوقظ ما فى قلبه من حقد قديم، ونزعة أصيلة للانتقام وسحق عدوه، لكن طباع عبد المعطى كانت مختلفة تمام الاختلاف هذه المرة، كان زاهداً فى المال الذى يعطيه له الطبيب، ولم يشعر بحقد بالغ تجاه الرجل الذى شغل مكانه، كل ذلك كان بمثابة تفاهات صغيرة لا يصح أن تشغل ذهنه، وتجرح كبريائه. . إن الذى جرح كبريائه فعلاً هو ما سمعه عن منال. . وعن المعلم حامد المليجى. . هذا الشئ أحقنه تماماً، كان كالمسكن الوقتى لآلامه، إذ سرعان ما نسى مرضه واتقدت حمى الغضب فى قلبه وجسده وروحه، وشعر بالغيرة اللافتة، وتتم فى غيظ «هذا الثعبان ذو دهاء. . يستطيع أن يتخمرها بالهدايا والأكاذيب والمال، ويغريها بمظهره الذى يبدو كصفحة الماء الصافية وهو

فى داخل نفسه بؤرة عفنة . . إن منال المسكينة تخطو إلى جحيمه ومكائده خطوات لا حذر فيها ولا احتراس . . الويل له إن كان يحبها كما يزعمون . . الويل لكل من تحدّثه نفسه بأن ينال من طهارتها وعفتها . . إنذار أبعثه من فوق فراش المرض وأنا واثق تمام الثقة من تنفيذ ما أهدد به . . »



وكم كانت دهشة عبد المعطى حينما جاءت أمه ذات ليلة مهرولة وهى تقول فى ارتباك ظاهر :

- عبد المعطى . . عبد المعطى . . الدكتور وصل . .

وتحامل عبد المعطى على نفسه ، وقد لامس نفسه بعض الانتعاش النفسى . . إن الطبيب بنفسه قد حضر لزيارته ، وعبد المعطى فى ذلك الوقت طفل فى عواطفه وانفعالاته ، لحساسيته المفرطة فى تلك الأيام ، ولم يستطع أن يصدق عينيه حتى رأى الطبيب يدخل وإلى جواره . . منال . . منال بلحمها ودمها ، وذهل لبضع لحظات ، ثم قفز من فراشه كشاب فى العشرين من عمره ، واختطف يدها ليصافحها فى حزارة وكاد ينسى الطبيب الواقف إلى جواره «عندما ينهمر المطر على أرض مجدبة عطشى طال جفافها ، تبتسم الدنيا وتشرق الحياة ، ويكون للهواء والوجود مذاق جديد ، وهكذا

تكفر الطبيعة عن خطاياها، ذلك كان إحساس عبد المعطى وهو يستقبل المرأة التى عبدها قلبه . . ووضعت أمه ثلاثة مقاعد استعارتها من الجيران . . وجلست منال والطبيب وهو . . حاول عبد المعطى أن يتكلم . . لكن الكلمات لم تطاوعه، حتى كلمات الترحيب التى اعتادها الناس تعثرت لدى شفتيه، وأمه وحدها هى التى استطاعت أن تجاملها بطريقة الفطرية البسيطة، إن حدثاً كبيراً قد وقع . . فزيارة الطبيب لبيت من البيوت فى القرية أمر يجب أن يتحدث به الناس كثيراً . . ونسى عبد المعطى إساءة الزمان . . والقطعة الفضية . . ونسى ما زعموه بالنسبة للمعلم حامد المليجى . . «ليقولوا ما شاءوا . . الناس كاذبون . . يخلقون من الحبة قبة . .»، وتمتم الطبيب:

- طالت غيتك علينا . .

- وطال شوقى إليكم . .

- وأسفنا لمرضك يا عبد المعطى .

- فيك الخير يا بك . .

- كان المفروض أن تأتى للعلاج عندنا . . فيتم شفاؤك . .

فالتفت عبد المعطى إلى «منال»، وقال فى نبرات مرتعشة:

- الشافى هو الله . .

فقالت منال ضاحكة :

- والطبيب؟

- مجرد وسيلة .. إنه يد الله البيضاء ..

- أورثك الاعتكاف والمرض إحساساً صوفياً عميقاً يا عبد المعطى ..

- يا ست منال .. كان شيخى يقول لى دائماً : لا تنسوا الله فيكلكم إلى أنفسكم ..

وقالت منال وقد ارتسم على وجهها ظل ألم دفين ..

- وماذا يقول شيخك في أولئك الناس الذين تقولوا علينا بالباطل ، وأثاروا الشبهات حول الزيارات البريئة ، وقدحوا في أعراض الناس وسلوكهم رجماً بالغيب؟

- شيخى يقول : إن بعض الظن إثم .. لكنه قال أيضاً : من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .. يعنى .. لا تضعوا أنفسكم فى مواضع الشبهات .. الناس فى قرينتنا يتقلون إلى عصر جديد .. وما يرونه غريب جداً عليهم .. لم يعتادوه من قبل ، وأفكارهم الساذجة تصدر عليه أحكاماً .. قاصرة .. مجرد سوء فهم .. الخروج على ما ألفوه يزعجهم .. هذا كل ما فى الأمر ..

كانت كلمات عبد المعطى ذات دلالة عميقة، صادقة تمام الصدق، وأخذ يتحدث من خلال الأحداث الكثيرة التى تعرض لها فى ماضيه وينظر إلى مفاهيم قريته، وتقاليدها العريقة، الجمال فى نظرهم محفوف بالخطر، والحب إثم كبير، والمرأة التى لا راعى لها أو زوج إذا تحدثت فهى فاجرة، وإذا مشت فى الطريق وحدها فهى ضعيفة، وإذا كان معها أحد فهى عاهرة، وتحتقر الناس والعقول وتدوس على الشرف والتقاليد... فيها أقوام لا يعرفون غير الله... والمسجد... والحقل... وذويهم... ينامون الليل كله، ويكدحون طول اليوم، وفيها ناس مغرورون يدعون كل شىء، ويشمخون بأنوفهم فى تعال أجوف... بالاختصار فيها ثعابين... وشياطين وملأئكة... هؤلاء الذين يقفون بين يدى الله متصاغرين ضارعين قد ينقلون فى غمضة عين إلى عمالقة... مرده يتصارعون، ويريقون الدم من أجل ماء التربة... أو قيراط برسيم... أو امرأة ذات مال تسابقون من أجل الزواج بها كما رأيتم... واستطرد عبد المعطى:

- والمعلم حامد المليجى... وغد كبير... كالذئب الذى يخطف دجاج القرية تحت جناح الظلام...

فقال منال فى قلق:

- ولماذا حامد المليجى بالذات؟

- رجل يخافه الناس ويكرهونه . . ومن داره انطلقت
الشائعات . . زعموا أنه قد يتزوجك يا ست منال . .

فضحكت منال ضحكة عالية لم تستطع أن تمحو الارتباك
الذي ساد وجهها وحركانتها، وقالت :

- إنهم أغبياء . . وأنا لا أخاف هذا الرجل . . وأنف أن
يسح حذائي . .

وكان لهذه العبارة صدى متناقض في نفس عبد المعطى ،
فقد اجتاحتته نشوة عارمة حينما سمعها تسخر من المعلم ،
وتمرغ كبريائه في الطين ، لكن ما معنى ذلك؟؟ هل منال تنظر
إلى القرية ورجالها وعواطفهم هذه النظرة المتعالية الساخرة؟؟
فماذا تكون نظرتها إلى عبد المعطى العليل الفقير إذن؟؟
وأزعجه هذا الخاطر أيا إزعاج ، لكنه عاد فابتسم لكلماتها
الجارحة التي صفعت بها رجولة المعلم وكبريائه ، وقال ونشوة
النصر تنبض في حديثه :

- - المعلم سوف يبنى في شرشابة «فيلا» أنيقة . .

فقالت منال ساخرة :

- فيلا في شرشابة؟ إنه أمر شاذ .

فتدخل الطبيب ضاحكاً :

- قد يكون الشذوذ عبقرية . .

فقلت منال :

- فيلا فى شرشابة .. كوردة فى بركة .. أليس كذلك .. ؟

وكان تعليق عبد المعطى :

- ربما .. لكنه يريد أن يبنى لحبيته قصرًا يليق بها .. أعنى
أنه يقول لمن حوله ويؤكد لهم .. أنك ستكونين زوجة
المستقبل ..

فرمت منال برأسها الجميل إلى الخلف ، وقالت وهى تهتز
من الضحك :

- وأم العز؟؟

- ليست أمراً ذا بال ..

- وأولادها؟؟

- المعلم لا يفكر إلا فى نفسه ..

وهز الطيب رأسه فى أسى ، وهو يقول :

- الجوى نذر بالعواصف ..

فقلت :

- وما السبب؟؟

- لست أنا .. ولا أنت .. وإنما الملح هناك شيئاً خفياً يدور

فى النفوس . . معركة عنيفة من التمرد والصراع ، القرية تستيقظ . . وبين اليقظة التامة والنوم العميق فترة خطيرة لا هى بالنوم ولا هى بالصحوه وإنما هى شىء يشبه النشوة . . فيكثر عدد السكارى الذين يتصرفون بغريزة الحيوان . . لا أقصد بالضبط الحيوان . . وإنما هى شخصية ممزقة جعلت من أرضها مجالاً لا صطراع نفسى هائل . . الازدواج يسبب الارتباك والانفصام أليس كذلك؟

ولم يع عبد المعطى ما يقوله الطبيب تماماً ، خاطر أنانى كان يراود مخيلته ، لقد تأكد الآن من أن منال تسخر من خزعبلات المعلم وادعاءاته ، وتنظر إليه على أنه مجرد فلاح جلف ، يغريه بريق جمالها وتسلب لبه فتتها الصارخة . . إنه لا يعرف الحب ، ولا يفكر التفكير المتزن السليم الذى يليق به كفلاح . . كتاجر مخدرات . . كمواطن من أبناء شرشابة . . القرية المتواضعة . . وبدت له منال كأنها فى سماء عالية لا يستطيع المعلم ولا من هو أقوى منه أن يرقى إليها . . على وعلى أعدائى يارب . . المهم ألا يصل المعلم أو غيره . . وتبقى هى أملاً بعيداً . . بذلك أستطيع أن أحبها كاملة . . حباً صوفياً صرفاً . . لكن واكرباه إذا امتدت إليها يد ، أو اختطفها عاشق ، وأصبحت له . . هنا أكون قد ودعت الحياة . . يجب ألا ينالها أحد ، حتى ولا «أنا» . .

وتمتم عبد المعطى فى شىء من الرضى والثقة :

- ألا تفحصنى يا دكتور؟؟

وتدخلت منال قائلة :

- يخيّل إلى أنك متعب لدرجة تحتم انتقالك للمستشفى . .
يجب أن تأتى غداً وتقضى أسبوعين عندنا . .

ودخلت أم عبد المعطى تحمل زجاجات القازوزة، وتناول الطبيب زجاجته، ثم شربها فى شىء من السرعة، وتجشأ، ولعت قطرات العرق جبينه الأبيض المشرب بالحمرة، بينما شردت منال، وأصبح جلياً أنها تفكر فى أشياء كثيرة، ومن آن لآخر تأخذ من الزجاجاة جرعة صغيرة، وتحاول من آن لآخر أن تلقى تعليقاً مقتضباً، وعبد المعطى يتحدث مع الطبيب عن العيادة الخارجية، وعدد الزبائن، وهل هو مستريح أم لا؟؟ وبينما هما منهمكان فى حديثهما الذى يتعلق بالعمل والمرضى ورأى الناس فى الطبيب، اندفعت منال تقول دون مقدمات :

- هذا الرجل الذى تطلقون عليه قاموساً من الصفات . .
الوحش . . الذئب . . الثعبان . . أنا لا أخافه . . وعندما يفكر أن ينظر إلى نظرة غير مهذبة فسوف أقتلع عينه . . هل فهمتم؟؟ يجب أن تبلغه ذلك يا عبد المعطى، ويجب أن يعلم أهل شرشابة ما أقول . . أنا لست هينة سهلة المنال، ولكنى فتاة

مشقفة .. ذات كبرياء .. لن أطأطأ رأسى لأحد .. هل
فهمتم؟

وبدا عليها انفعال ثائر، حتى خيل لهما أنها على وشك
البكاء، وتتم الطيب:

- إنك أنثى على أية حال .. أنثى ضعيفة حتى فى ثورتك
وتهديدك وكبريائك ..

فقالت وهى تقف والغضب والدموع يمتزجان فى عينيها:

- سترى .. هيا .. آن أن نرحل ..

وحاولت أن تنظر إلى الساعة التى فى معصمها، لكنها
بحركة لا إرادية رمقت السوار الذهبى المتألق الذى أهداه لها
المعلم من قبل، فهبطت بيدها فى عنف وحُقْ وكان السوار قد
زاد من ثورتها وحدثها، وقبل أن تخرج من الحجرة، اقترب
منها الباشكاتب عبد المعطى، وقال فى ثقة:

- اطمئنى .. عندما تفكر يد أن تلمسك فلسوف أقطعها ..
واللسان الذى يتقول عليك سوف أرميه للكلاب ..

- وأنا كفيلة بأن أفعل ذلك ..

وخرجت ومن ورائها الطيب وعبد المعطى يتحامل على
نفسه، ويجرى خلفهما لاهثاً والعبارات تتناثر من فوق شفثيه:

- شرفتم .. حصلت لنا البركة .. شرفت دارنا يا ست منال .. كلنا خدام لحضرتك ..

لكن منال لم تكن تسمع سوى الكلمات الوقحة التى أشاعوها عنها، ولم يكن فى خيالها ذلك الرجل الناعم الملمس، والذى يطوى بين أضالعه قلب ذئب مفترس، وينطلق من عينيه بريق فيه ثورة .. وخوف .. وجوع .. وإغراء ...





لم يكد يشرق الصباح فى اليوم التالى حتى غدَّ عبد المعطى
السير ناحية المستشفى ، وبدا مشرقاً مستبشراً برغم الداء الذى
يسكن كبده وبرغم الضعف والوهن اللذين جعلاه يتطوح فى
مسيره ، وينقل خطواته اللهفى فى حذر ، صورتها فى
رأسها . . منال بتقاطيعها الحلوة المثيرة ، وغضبها بالأمس وهى
تثور وتسخط على المعلم بعد أن اتهمتها الشائعات ، وأناملها
الدقيقة وهى تفرقعها فى عصبية ، كانت رائعة جميلة فى
غضبها وألمها ، والناس يلتقون به فى الشارع وهو شبه حالم ،
وكلمات كثيرة تتساقط دبر أذنيه لا يكاد يسمع منها شيئاً
«حمداً لله على سلامتك يا سى عبد المعطى . . ربنا يتم شفاءك
يا حضرة الباشكاتب» . . وعبد المعطى يشير بيده محيياً أو
يلوح بها شاكراً ، وأصدقاؤه يلتقون به فى الطريق العام ،
ويصطدمون لأول وهلة بصحته المتدهورة ، لكن وجلهم
يتناقص وهم يرون روحه المعنوية فى القمة ، فرغم شحوب

وجهه الزائد، إلا أن ابتسامة نابعة من أعماقه تغنى فوق شفثيه، وصورتها من جديد تملأ قلبه وعقله وكيانه كله، الناس يحدثونه عن القتل الذى راح فى الظلام، وعن الجرحى الثلاثة، والثأر الذى يهدد مستقبل أسرتين كبيرتين، وحرائق الانتقام التى شبت فى المزارع والسواقي، والزروع التى أتلقت عقب الكارثة، وهو بين هذه الأخبار المثيرة لا يفعل أو يتحيز لطائفة من الطائفتين مخالفاً بذلك طبيعته، كلا الطرفين الجانى والمجنى عليه فى نظره أبرياء.. ضحايا لحظة من لحظات الضعف الإنسانى والطمع.. اللهم أخزك يا شيطان..

وبعد ساعة كان عبد المعطى يرقد على سرير نظيف فى قسم الأمراض الباطنية، والطبيب يعامله برفق، ويعدده بالشفاء العاجل، ويناقش معه أهم أحداث القرية، ومنال.. منال هى الأخرى تتحرك بين الأسرة فى خفة العصفور الرشيق، وتميل عليه كالوردة اليانعة، وتضع أقراص الدواء فى فمه، ثم تغرز إبرة المحقن فى ذراعيه وهو يتمنع ويتوسل إليها أن ترفق به، وبين الابتسامات الفاتنة والضحكات البريئة الممتعة تناسى أمراضه وآلامه وأوراقه، واغتفر إساءات الماضى، وظل راقداً على فراشه يحلم بالحب، ويجتر ذكرياته القرية، وظلال السعادة تتراقص فوق وجهه الشاحب، وتخرج منال من العنبر لتعود، وعبد المعطى يجلس فى فراشه، وعيناه مركزتتان على

الباب ينتظر أوبتها كمراهق صغير لا ينام الليل، ومشاعر مفعمة باللوعة والشوق تخالج فؤاده . . ليس له عهد بها من قبل وأصبح لحياته - رغم المرض - مذاق شهى، أصبح لها معنى ولم تعد تلح عليه أحقاد الصغيرة على أناس يكرههم أو ينصبهم العدا، ونسى أوراقه وأقلامه والتفكير فى الشكاوى القاسية التى كانت تهز القرية هزاً عنيفاً، وتسوق رجالها - ذوى رأى - إلى حيث يدور التحقيق وتحدد المسئوليات ويؤخذ بالعقاب كل مقصر . .

وفى ساحة المستشفى جلست «منال» تنتظر المعلم، لتسلم منه التغذية، كانت ملامحها حادة جامدة، وعيناها مصوبتين إلى شىء، كانت تفكر فى السياسة الجديدة التى يجب أن تنتهجها حتى تعيد لنفسها كبرياءها، وتصفع تلك الشائعات الخبيثة صفقة قوية . . ترى لماذا ذهبت إليه فى بيته، وتركت نفسها تستسلم لأوامره وإصراره؟؟ هذا الفلاح المتعجرف يتسبب لها فى كل هذا، ويفرض اسمه عليها، ويملا الجوشائعات مغرضة بتصرفه الخبيث . . ثم ترفع منال يدها، فتصطدم نظراتها بالسور الذهبى الثمين، وتحملق فيه بضع لحظات . . ثم تدع يدها تسترخى فى إعياء . . لا بأس . . لقد صحت من سذاجتها ونعاسها، وواجهت الموقف بقوة وشراسة . . لقد رفضت طعام الإفطار الذى أرسله فى

الصباح ، وعندما ألحَّ عليها وتركه إلى جوارها لم تعره أدنى التفات ، وانفلتت من الحجرة خارجة ، وأرغمته على العودة به من حيث أتى . . . والآن سوف يعود إليها كالكلب . . . لن يستطيع أن يرفع نظراته إليها ، وإذا فعل ذلك سوف تقابل وقاحته بالمثل ، وتعامله المعاملة اللاتقة بمثله ، هذا الذئب سوف تعرف كيف تقلم أظفاره . . .

وحينما جاء المعلم ومعه بعض الرجال يحملون المواد الغذائية وغيرها ، نظرت منال إليه دون اكتراث ، وقامت لتفحص كل شيء ، ووقف المعلم يرقب ما تفعل وفوق شفثيه ابتسامة هادئة قد تبدو ساخرة وقد تبدو غير ذلك ، والتفتت إليه فجأة ، وقالت :

- أين الأرز . . !

- أحضرنا مكرونة بدلاً منه . . لا يوجد في السوق أرز . .

فعادت إلى أوراقها وكتبت وهي تقرأ ما تكتب بصوت مرتفع :

- تعاد المكرونة إلى المتعهد ، ويشتري الأرز على حسابه حسب الاتفاق المبرم . .

فقال دون أن تزايله ابتسامته :

- كلام الملوك لا يرد . . والتفت إلى أحد أتباعه قائلاً :

- خذ المكرونة وضعها في مخزن المقهى . .

ثم أخذت منال تفرز أرغفة الخبز، وجعلتها قسمين،
وأشارت إلى أحدهما قائلة:

- هذه الكمية غير طازجة . . يجب أن تستبدل فوراً . .

- على عيني . . ارفعها يا ولد . . وأحضر بدلاً منها في ربع
ساعة . .

وعندما اقتربت من قفص العنب، سبقها المعلم إليه،
وقال:

- هذه القطوف ليست على ما يرام، يجب أن تستبدل . .
فقالت منال في حدة:

- ولمَ لم تفعل ذلك من قبل؟؟ المسألة ليست فوضى . .
إنك تقبض ثمنها كاملاً وعليك أن توفى بالتزاماتك كاملة . .
ثم لا تنسَ أنها حقوق مرضى . . مرضى من أهل بلدك، وهم
مساكين في حاجة إلى الرعاية . .

- معذرة يا ست الحكيمة فأنا لا أراها عند الشراء . . وأنا
معك في كل ما تقولين . .

وعجبت منال من أعصابه الحديدية، بل إنها شعرت بغير
قليل من الخجل، إنها تتحداه وهو يقابل تحديها وعنفها

بابتسامته التى لا تغرب عن شفّتيه ويسلم لها بكل شىء، لا يحاول أن يسترضيها أو يتوسل إليها، انتظرت منه كلمة رجاء فلم ينطق فى ثقة واعتداد.. ولما رفعت عينيها إليه، تلاقت نظراتها مع نظراته التى ينطلق منها بريق مشير مخيف.. وسرعان ما أجلفت، وهمست:

- انتهى.. كل مرة وأنت طيب..

وغمغم فى هدوء:

- متشكر..

وحينما أدار ظهره مزعماً الرحيل، صرخت قائلة:

- يا معلم..

- خدامك..

- خذ..

ورأى المعلم الأسورة الذهبية ممدودة إليه، ووجه منال يسوده الشحوب، وشفّتيها ترتجفان فى عصبية، فلم يتناولها منها بل قال:

- ليست لى..

- إنى أصر على ردها..

- ما السبب؟؟

- لأنه تصرف سافل من أساسه . .

- إنك غاضبة . .

فقلت فى حدة وانفعال :

- «إنكم معشر الفلاحين مخادعون، يصفونكم بالبساطة والطهر والنقاء، وأنتم ذئاب تمتلىء قلوبكم الخبيثة . . كلكم مرضى بالبهارسيا . . وأيضاً بالخيث . .» .

وارتسم على وجهه ألم ظاهر، وقال وهو يغالب انفعاله :

- إنك تشيرين قضية، ليس من السهل الحكم فيها بهذه البساطة . . ومع ذلك . . الله يسامحك يا ست منال . .

وأدار ظهره مرة أخرى، وهمّ بالرحيل، لكنها لحقته، وقذفت بالأسورة أمامه، وتمتعت حائقة :

- تستطيع أن تشتري بذهبك أمثال أم العز . . أما نحن فلا . .

فرفع الأسورة من فوق الأرض، ونفخ عنها التراب، ثم أخرج من جيبيه منديلاً ولفها فيه فى حرص، وأسكنها جيبيه وهو يقول : «فى الحفظ والصون . . ليس فى قرىتنا سوق للرفيق الأبيض مثل القاهرة . . ومن هنا لم تراودنى فكرة الشراء بالذهب ؛ لأنه شىء لم نألفه هنا فى شرشابة . . ولو

سمعت مثل هذا الكلام من أم العز لم رغتها فى التراب ،
وكنست بها الأرض . . لكن . .

فقاطعته قائلة :

- احفظ أدبك وإلا . .

- وإلا ناديت الخفير أو التومرجى وجعلته يقذف بى إلى
الخارج . . أليس كذلك ؟ . . إن أحداً لا يستطيع أن يفعل
ذلك . . فأنا أثقل من أن يحملنى أحد عنوة . . والناس هنا لا
يأخذون أوامر النساء مأخذ الجد . . فلم يبق سوى أن تحملينى
بنفسك وتقذفى بى فى التربة المجاورة . . وستجدين من
يصفق لك مسروراً . .

وأتبع حديثه بضحكة ساخرة ، وفى خطوات هادئة ، خطا
بعيداً عنها وفى قلبه مشاعر أبعد ما تكون عن تصوراتها ، كان
سعيداً متشياً ، وكلماتها الحائقة يتردد صداها فى أذنيه ، لم
تزلزل من كبريائه ، أو تحط من كرامته . . أو تبعث على الألم
أو الغيظ - لقد انتصر . . استطاع أن يفرض نفسه على
تفكيرها ، إنها لم تثر فى وجه أحد فى شرشابة أو تناصبه
العداء ، لقد تميز عن الجميع باصطدامه معها ، حتى تأزم الموقف
بينهما ، إنها نتيجة سريعة سارة لم يكن يحلم بها قط ، وغمغم
لنفسه : « هذه الدمية اللطيفة قد شغلت قلبى حقاً . . هذا

الصنف الثائر المتمرد من النساء حلوا المذاق . . شيء لم أجربه . . إنها تتلفض بالحياة وتلفح كالنار، وتسكر كالخشيش . . كالخمر . . أما أم العز . . فهي زجاجة كوكاكولا مثلجة . . دخان بلا خشيش، لها أثر وقتى تافه . . عندما أستطيع أن أتشاجر مع منال كل يوم فسوف أغمض جفنى كل ليلة فى سعادة بالغة . . وأنام منتشياً سعيداً . . آه - سامحك الله يا أم العز يا جذع الجميز . .

وبقيت منال - بعد ما حدث - فريسة هم لا يريم، لقد شعرت فى بداية الأمر براحة كبرى ونظرت إلى يدها بعد أن خلعت عنها الأسورة، وتنهدت فى ارتياح، لم يعد هناك ما ينغصها أو ينال من كبريائها وسمعتها وطهارتها، سوف تمضى فى شوارع القرية مرفوعة الرأس، تبتسم للجميع، وستؤكد للجميع أنها فوق الشبهات والصغائر، وأن منال - أميرتهم الفاتنة - سوف تبقى فى سمائها لا تمتد إليها يد بسوء، أو يغمزها لسان بكلمة نابية . . ولن تزور أحداً دون الآخر، بل ستتردد على دور الفقراء والأغنياء، والمعارف وغير المعارف، وستعود كما كانت بادئ الأمر تلتقى بالأطفال الصغار فى الحوارى والأزقة، وتطبع على خدودهم المعفرة بالتراب قبلة الود والمحبة، وتربت على أكتافهم ورءوسهم فى حنان، وتعطيهم «الطوفى» والملاليم . . وبذلك لا يستطيع المعلم ولا

غيره أن يتباهى بعلاقته معها أو يزعم احتكار عواطفها وتقديرها . . فهى للجميع . . الأطفال . . والرجال . . النساء . . والصبايا . . الفقراء والأغنياء . .

لكن سعادة منال لهذه الخواطر كانت طارئة، سرعان ما تبخرت، تركت فى قلبها ألماً عميقاً . . لقد كان فى تصرفها رعونة واستهتار . . فيم أخذت الهدية، وفيم ردتها؟؟ ثم إن كلمات المعلم حامد الواعية التى تحمل أكثر من معنى، وأرغمتها على التفكير فيها قد سببت لها الإزعاج، وشوّهت لديها كبرياءها العائدة، وتذكرت عبارته الأخيرة «الناس هنا لا يأخذون كلام النساء مأخذ الجد . .» يا له من رجعى حقير . . لم يزل يتمسك بتلك الأفكار العفنة البالية . . منطق القرية التعسة التى تحيا فى أحضان الذل والجهل من مئات السنين . . لشد ما أغاظتها تلك الثقة السمجة التى تبدو فى نبرات صوته . .

وفى المساء لم تستطع «منال» أن تبقى وحيدة بحجرتها، لقد ازدحمت فى رأسها الصغير الجميل عشرات الأفكار والحوادث، مشاكل مكررة متعبة جلبت لها الضيق والملل، حاولت أن تتجاهلها لكنها كانت أقوى من أن تدفع، وشعرت بميل جارف للبكاء، وحنّت إلى صدر أمها الدافئ كى تلقى برأسها فوقه وتبكى . . تبكى حتى تخف حدة انفعالها، ويزول

توتر أعصابها، وهرولت إلى الخارج . وفي طريقها إلى عنبر المرضى بدا لعينها المقهى القريب الذى يملكه المعلم، وضوء باهر يغرق المقهى كشلال من الضوء، والمذياع تنبعث موسيقاه رنانة شجية، وقطع الطاولة، وصوت ارتطامها يصل إلى سمعها، وقهقهات رجال، ومواويل، وتأوهات، ونباح كلاب، ونقيق ضفادع لدى شط التربة المجاورة، وأنين ساقية فى الحقل المجاور، وفوق رأسها نجوم تلمع فى السماء الصافية، وأشباح تتحرك عبر الطريق الممتد أمام المستشفى . . وأفادت منال إلى نفسها ثم قصدت لتوها السرير الذى يستلقى فوقه الباشكاتب عبد المعطى، وقربت مقعدها منه، وهى تقول :

- الليل طويل . . والجو حار . . لم أستطع النوم مبكراً . .
ومن ثم أتيت إليك . .

وسرَّ عبد المعطى أيما سرور، هل كان يحلم بأن يرى منال فى الصباح والمساء، وينعم بالقرب منها أطول مدة ممكنة؟؟ لقد كان يفكر منذ لحظات فى طريقة ليستدعيها بها، حتى ولو ادعى المغص الحاد كى تأتى إليه، وتعطيه عقاقير مسكنة، لكن ليته . . لم تقل ما قالت، حسبتها أتت لأنها تحب الجلوس معى، أما أنها لا تأتى إلا فراراً من الليل الطويل والحر والأرق فهذا مزعج . . ولم يستطرد عبد المعطى فى تأملاته؛ لأنها قطعت عليه حبل تفكيره حين قالت :

- من الأقوى فى هذه القرية يا عبد المعطى؟؟

وابتسم عبد المعطى ابتسامة العالم النحرير بعد أن أفاق من الدهشة التى انتابته لغرابة السؤال ، وقال فى اعتداد :

- سلطان القرية هو التقاليد التى ألفوها جيلاً بعد جيل . .
ومن يخرج على العرف والتقاليد لا بد أن ينتهى إلى هاوية
سحيقة . . ولم يبدُ على منال أنها اقتنعت تمام الاقتناع بما
يقول ، بل ربما كانت تقصد شيئاً آخر ولهذا قالت :

- وماذا غير التقاليد؟؟

- لا أفهم . .

- أريد أن تذكر لى رجالاً لهم كلمة وبطش وسلطان . .

فسكت هنيهة ثم قال :

- الشيخ المداح . .

- مَنْ هو . . ؟

- من رجال الله . . صاحب السلطان الروحى . . شيخ
الطريقة الأحمدية . . كل رأس فى شرشابة تنحنى له ، وكل
شفة قبلت ظاهر راحته . . يستمد سلطانه من الدين والسيرة
العطرة . . كلماته أمر ، ورأيه لا يقبل النقض . . فى السبعين
من عمره . . الشخص الوحيد الذى لم أمسه بسوء . . وحاشا
لله . . هو الخير والبركة فى هذه الديار . .

وقبل أن يكمل حديثه ، قالت منال فى عجلة :

- ثم من يأتى بعده؟

- الحاج على ..

- من يكون؟ ..

- من رجال الدنيا يساوى عشرين فداناً من أجود الأرض

أخوه حكمدار البحيرة ، وله أسرة كبيرة شرسة وخمسة من

الإخوة الأشداء ، فى عنقوان شبابه فى السابعة والثلاثين ..

ليس له خصم إلا وسحقه .. وشيخ بلد .. أنت تعرفينه ..

وقالت وهى أشد ما تكون ضيقاً ولهفة :

- ثم من؟

وران الصمت بضعة لحظات ، ومنال تنتظر على أحر من

الجمر ، وارتعشت شفتاه ، وشاب حركاته ارتباك ظاهر وهو

يقول :

- العبد لله .. يعنى .. أنا .

- أنت .. قوى ..؟

أفلتت منها دون أن تحترس ، وأدركت على الفور أنها ربما

قد تكون آذت مشاعره ، وسخرت من غروره ، فكيف يكون

من عتاة الرجال وهو العليل ، الفقير الذى يتسبب إلى أسرة -

برغم كثرة عددها- متواضعة الحال، وأحنى عبد المعطى رأسه للصفعة التى لم يكن يتوقعها، وقال:

- ألا تذكرين حين قال لك الطبيب يوم لقائنا الأول أنى أهم شخص فى شرشابة.. قد يكون مغالياً، لكن..

فقاطعته قائلة:

- متأسفة.. لم أقصد الإساءة إليك..

فابتسم عبد المعطى فى ألم.. إنه آخر ما تفكر فيه دائماً برغم أنها تسكن قلبه، وتملأ عالمه كله، بل هى أبوه وأمه وأصدقائه.. كل شيء هى بالنسبة له، وغالب ألمه وأساه، وقال فى نبرات واجفة:

- الحرب فى هذا الزمان أصبحت معركة عقول يا ست منال.. قنبلة ذرية من مكان بعيد تنسف آلاف الرجال، وتخرّب المدن، ولا يقف فى وجهها الملايين من الرجال حاملي المدافع والسيوف.. وأنا هنا أقوى رجل فى شرشابة.. بعقلى.. وقلمى..

فقالت مداعبة:

- لعلك اكتشفت قنبلة ذرية أخرى يا عبد المعطى.. فشاركها الضحك، لكنها لم تمهله طويلاً، واستطردت قائلة:

- ومن بعدك من الأقوياء؟

- لا أحد...

وفوجئ عبد المعطى حينما سمعها تقول وهى تركز نظراتها
فى وجهه :

- والمعلم حامد المليجى؟ تكلم بصراحة .. ألا تعده من
الأقوياء؟ .

ولم يجد عبد المعطى مناصباً من أن يقول كلمة الحق برغم
كرهه الشديد له :

- لا أنكر أنه قوى .. إنه خبيث داهية .. يملك المال
والرجال المخلصين .. إنه بمثابة طابور خامس ..

- طابور خامس؟؟

- أجل .. هذا الوغد يعطى الفقراء كثيراً .. يعيش المال ..
يكسب كثيراً ويتفق كثيراً .. تصورى أنه يتصدق بالحشيش
على الفقراء المدمنين .. الطابور الخامس مال وذكاء ..

- إنه أقواكم ..

- ربما لكن قوته ليست فضيلة .. عشرة أفدنة وخمسة
آلاف جنيه فى البنك رأس مال لا يستهان به .. بعض ضعاف
النفوس يبيعون أرواحهم وأجسادهم بالمال .. أما أنا فأعيش
بلا مال .. لكن .

- لكنك شريف .. مرهوب الجانب ..

- بالضبط ..

وتشعب بهما الحديث من موضوع إلى موضوع، وتلك المملكة الصغيرة - القرية - هي مدار الحديث، ناسها وتاريخها وأحداثها، وطرائفها، ومن آن لآخر تشرد منال لبضع لحظات، وتحلق في أفق خيالها ابتسامة واثقة هادئة، ونظرات ثابتة ينطلق منها بريق يثير الخوف والشهوة، ووجه حليق أسمر - بل قمحي اللون - وجه رجل تعرفه وتخافه وتبغضه و .. وتميل إلى غموضه وتبججه .. إنه المعلم حامد المليجي ..





عادت منال إلى القاهرة بعد شهرين من استلامها العمل ، كانت تهرول إلى القطار تغمرها الלהفة ، ويدفعها الشوق والحنين ، كل شيء حولها يضحك ، وبالرغم من حرارة الجو ، ولزوجة العرق ، ورائحة المسافرين والطعام وبقايا الفواكه المبعثرة ، كانت سعيدة تتقبل كل شيء بقبول حسن ، وتغتفر المضايقات التي صادفتها أثناء الطريق ، وشعرت أن القطار - رغم اندفاعه كالسهم المنطلق - أبطأ مما يجب ، حاولت أن تتغلب على قلقها ولهفتها فألقت برأسها على حاجز المقعد ، لكنها تلملت في ضيق بعد أن عجزت عن جلب النوم ، ثم اشترت مجلة وصحيفة يومية ، وأخذت تقلب الصفحات في عصبية ، ولا تكاد تبدأ في القراءة لبضعة سطور حتى يعاودها الملل من جديد ، فتكتفى بالنظر إلى صور الفاتنات ونجوم المجتمع ، ثم ترحف ببصرها إلى السينما والإعلانات التي تتحدث عن أحداث الروايات المعروضة

على الشاشة البيضاء أو على خشبات المسرح ، وقذفت
بالأوراق فوق رف يعلوها ، وعادت تجتر مللها وصحتها
وقلقها ، وتناهى إلى سمعها صوت فى آخر العربة يترنم
بصوت جريح لكنه جميل مؤثر :

يا نجمتين اشهدوا لى أحسن أنا مظلوم

نجمة تروح اليمن، نجمة تروح الروم

الناس بتعشق صبايا كعبيها مبروم

وأنا عشقت النبى راح له الجمل مخزوم

وأعاد إلى ذهنها ذلك الصوت الجميل الجريح ذكرياتها لدى
مسجد السيدة زينب ، والميدان الواسع الذى يعج بالزوار
والعاشقين ، وأحباب أهل البيت وجموع الذاكرين وهم
ينتظمون فى حلقات ، ينحنون ويستقيمون ، ويتطوحن ذات
اليمن وذات اليسار هاتفين باسم الله . . موحدين مكبرين . .
وصوت المنشد يعلو بقصائد المديح والخمریات وأغانى
المتصوفين الذين يذوبون شوقًا وحنينًا ، فتغلبهم الحماسة
وتسيل الدموع ، وتزداد حركاتهم عنفًا وقوة ، حتى يسيل
عرقهم ، وتسقط الطواقى والعمائم من فوق رؤوسهم ،
وكلمات تصدر فى حرقه «مدد يا سيدة . . نظرة يا أم
العواجز . . مدد يا رسول الله» .

والخاوى ينشد متميلاً فى نشوة:

يا بنت الأطهار أنا المختار داوينى

جدك له معجزات ملأت دواوينى

يا تاجر الخمر املا الكاس وناولنى

بأيدي حللتها والشرع ناولنى

وغرقت منال فى ذكرياتها الحلوة العطرة . . ذكريات
الطفولة السمحة البريئة فى حى السيدة زينب ، حتى نسيت
تماماً ما حولها من ناس وروائح وحرارة تسيل العرق ، وذلك
الرجل الذى يترغم بالمواويل ، وأنصاف القروش التى تتساقط
فى يده الممدودة .

وحينما بدت من بعيد مآذن القاهرة ، وعماراتها العالية التى
تنفث عن صراعها وكدحها بدخان أسود ، خفق قلبها خفقات
حلوة شهية ، وتمنت أن تطير بجناحين وترتمى فوق أحد تلك
المشاهد وتمرغ جسدها وروحها فوق ترابها ، كانت لهفتها أقوى
من لهفة العاشقة المدلّهة التى تنطلق للقاء حبيبها ، وظلت هكذا
مخدرة الحواس ، شبه حاملة حتى ابتلعته المدينة الكبيرة . .
الساحرة . . بناسها وعرباتها الكثيرة وضجيجها ورائحتها
المثيرة ، وعادت أخيراً منال إلى أحضان أمها الكبرى -
القاهرة- وسرعان ما أحست بالدعة والسلام والسكون ،

وانجابت عن نفسها سحب القلق والغربة والوحدة . . هذه الشوارع والمباني ومن يعج بها . . جزء منها بل هى حياتها وذاكراتها وأشواقها، وركبت ترام رقم (٤) قاصدة السيدة . .

- تذاكر يا ست . . مشط بقرش . . مشابك . . دبايس . .
حبال غسيل . . سكر نبات . . يجلو القلب . . ويفتح النفس يا سلام . .

وحينما نقرت الباب نقرات خفيفة، وسمعت وقع أقدام بالداخل، غمغت :

- إنها أمى . . يا حبيبتى يا ماما . . افتحى . . بسرعة . . أنا منال .

وألقت برأسها بين أحضان أمها، وأحاطتها بذراعيها فى تشبث وقوة وضغطت . . ضغطت كأنما تخاف أن يتزعها أحد منها، ويفرق بينهما، وأجهشت بالبكاء، وأغرقت صدر أمها بدموع كثيرة غزيرة؛ دموع الشهرين الطويلين التى أخذت تتجمع حتى وجدت متنفساً أخيراً فتدفقت . . ثم رفعت رأسها، وأرخت ذراعيها، وانتصبت واقفة وأهدابها السمراء الفاتنة مبللة بالدموع، وطبعت أمها قبله أودعتها كل حبها وحنانها فوق خدها الرطب، وقالت منال وهى تشرق من الدموع وتبتسم ابتسامة سعيدة :

- أوحشتنى يا ماما . . لم أكن أصدق أن أراك مرة ثانية .
 الغربة ملأت قلبى بالخوف والقلق . . آه . . لكم أحبكم . .
 وتمت الأم وهى تغالب دموع الفرح :
 ألف حمد لله على سلامتك يا روحى . .

وأرادت الأم أن تبدد جو الانفعال الصاخب الذى شحنت
 به ابتتها المسكن ، فقالت مداعبة وهى تقرص خدها فى حنان :
 - لقد اكتسبت بشرتك سمرة فاتنة . . وها هو صدرك ازداد
 غمواً ، وامتلاً عودك . . إن شمس الريف وجوها مفيد جداً كما
 أرى .

وابتسمت فى خجل وغمغمت :

- الفراق يا أمى . . آه لو تعلمين . .

- أكل العيش يا ابتى . . لا تحزنى . .

وتذكرت منال العشرين جنيهاً التى ادخرتها من مرتبها ،
 واحتفظت بها فى حافظة نقود أودعتها فى صدرها مخافة أن
 يسرقها أحد ، أول نقود تحصل عليها من عرق جبينها ،
 وشعرت بالسعادة العظمى وهى تتخيل نفسها جالسة أمام أمها
 تعد لها العشرين جنيهاً . . واحداً . . واحداً . . وملامح أمها
 تنطلق بالسعادة ، ولسانها يلهج بالثناء عليها ، وهبطت من
 أحلامها المحلقة على صوت أمها يقول :

- نحن نبذل محاولات كبرى لنقلك من الريف . . والأمل كبير . .

- صحيح يا أمى؟

- بالطبع ، وإذا لم تنتقل إلى القاهرة ، فليكن فى مكان قريب منها حتى تستطيعى السفر والعودة يومياً لتكونى بيننا . .
آه لشد ما تشوقت إليك . . كان خطابك كنزاً ثميناً بالنسبة لى ، فأضمه إلى صدرى فى حنان . . وأقرؤه عشرات المرات . . بل وأحلم به . .

فقاطعتها منال قائلة :

- تماماً مثلما كنت أفعل . .

وألقت منال بنفسها مرة أخرى بين ذراعى أمها ، ثم أخذت تقبلها من كل مكان فى وجهها وهى تزداد شوقاً والتصاقاً بها كلما بسطت لها الأم صفحتى وجهها الواحدة تلو الأخرى ، وانتزعت منال نفسها فجأة ثم فرت إلى حجرات الشقة ، وأخذت تدقق النظر من جديد ، وقالت فى انفعال وصدرها يعلو ويهبط :

- أين إخوتى؟؟

- أوه . . لقد نسيناهم . اطمئنى . . كلهم بخير . .

- أين هم . .

- فى السينما . . ثم استطردت قائلة :

- لشد ما أزعجونى بسببك . . كل ساعة وكل لحظة ،
يقولون أين أبله منال؟؟ ألن تعود؟ ومتى تعود؟ نريد أن
نراها . . سوف نساغر إليها ، ونسأل عن شرشابة هذه كى
نبلغها ولو كانت فى آخر الدنيا . . بل إن أخاك الصغير قد
جمع فى «الحصالة» قروشاً كثيرة ، وكان يقول دائماً سوف
أعطيهها للكمسرى كى يأخذنى لأبله منال . . وذات ليلة ظل
يبكى من أجلك حتى نام . . والدموع فوق وسادته . .
هؤلاء الخبثاء المشاغبون يحبونك أكثر مما يحبوننى حتى
كدت أغار . .

وأخذت منال تسأل عنهم واحداً واحداً ، وتستفسر عن كل
شئ حدث طوال المدة ، وتلح فى طلب التفصيلات - التافه
منها والمهم - وسرعان ما تبتز الموضوع ثم تنتقل إلى غيره دون
تمهيد ، كانت مثل جائع أمامه مائدة عامرة بشتى ألوان الطعام
والشراب ، فتدفعه شدة الجوع لأن يأكل بسرعة ويختطف من
هذا وذاك ، حتى يمتلئ فمه؟ مخافة أن يختطف أحداً ما أمامه .

وتنهدت منال فى ارتياح . . وجففت العرق المتساقط على
جبينها . . وتمتمت :

- زجاجة كوكا كولا يا ماما . . ما هذا البخل؟؟

وقالت الأم وابتسامة عريضة تضيء وجهها المتغضن من أثر
السنين الأربعين :

- عيون ماما ..

وأسرعت الأم صوب الباب كى تنادى صبي البقال المقابل،
بينما استلقت منال فوق حشية الأريكة الخشبية، وأخذت تنظر
إلى منضدة السفرة المتأكلة، والمفرش البالى النظيف الذى
يغطيها، والكراسى الخشبية الستة التى تحيط بها، ثم رفعت
بصرها إلى الصورة الكبيرة المعلقة قرب السقف، صورة أبيها
الراحل بشاربه الكث، وطربوشه المحبوك، و«البابيون» الذى
يررز تحت ذقنه المدببة وجاكتة من الطراز القديم، وعينيه
الواسعتين اللتين تطيلان النظر إليها وكأنهما تبثانها الثقة
والشجاعة على مجابهة الحياة وصعابها حتى تحمل الرسالة من
بعده وتكدح من أجل تربية إخوتها، وسعادة أمها، وتمت
فى ألم بالغ:

- الله يرحمه ..

واجتاحتها فى هذه اللحظة موجة داهمة من الحزن العميق .
إحساس رهيب مؤلم كان يخالط مشاعرها كلما نظرت إلى
أبيها فى الصورة، إذ سرعان ما تتذكر كلماته وهى صغيرة: يا
منال .. احذرى الرجال .. لا تفرطى فى شرفك قيد شعرة ..

سوف أنزعج فى قبرى إذا ما سمحت ليد رجل كى تمتد إليك
 بخبث ونذالة . . نحن فقراء . . رأس مالنا الشرف والشرف هو
 ستر الله . . الناس يا ابتى يتهمون مجتمع البنات فى القصر
 العينى . . وأنا أقول لهم بلاء فمى المسألة مسألة أخلاق . .
 كانت هذه الكلمات تطن دائماً فى أذنيها كلما نظرت إلى
 صورة أبيها . . لكنها مع ذلك . . فى البيت الكبير الذى تأوى
 إليه الفتيات فى القصر العينى نسيت ذلك وهى تستمع إلى
 زميلاتهن . . ونسيت ذلك أيضاً فى الضوء الخافت . . فى
 الليل . . فى كشك السهر عند «نوبتجيتها» . . وفى طرقات
 القصر العينى فى الساعات الأخيرة من الليل . . ونسيته أيضاً
 وهى سهرانة فى مستشفى الوحدة المجمعبة بشرشابة حين كانت
 تجدد نفسها وحيدة مع الدكتور رمزى . . أجل نسيت نفسها
 وسمحت لبعض الشفاه الساخنة كى تمر على ثغرها
 ووجنتيها . . ولم تجد القوة أو الشجاعة الكافية كى ترد الأيدي
 تدفعها وتثير اللهب والنشوة والحذر فى جسدها . . هذا كل ما
 فى الأمر . . لكنها على أية حال خطيئة . . وخيانة لوصايا
 الأب الذى يرقد - لا شك - متألماً فى حفرة مظلمة تحت
 الأرض . . لحظات ضعف عجيبة لم تستطع أن تقهرها
 وتفرض سلطانها عليها . . «لكن أعدك يا أبى مرة أخرى أنى
 لن أعود لهذا المستنقع . . كل ذلك كان شيئاً سطحياً ولهواً

تماديت فيه ، ومن السهل أن أطفى الجمرة الخبيثة التى تحرق
جسدى ، وتلهب روحي . . بضعة أكواب من الماء البارد . .
كلمات وقحة نابية جارحة أوجهها لنفسى . . وللأوغاد ،
سرعان ما تقف بنزواتنا عند حد ، وتوقظنا من أحلامنا
الساذجة المجنونة . . » .

- كوكا كولا يا حبيتى . .

- شكرًا يا ماما . .

وتدافعت لدى الباب نساء الشارع - خاصة الجيران -
ومعهن أطفالهن ، وبعض الرجال . . البقال وصبيه ،
المكوجى ، بائعة الفواكه على ناصية الحارة المجاورة ، الجزار
القريب ، الجميع أخذوا يتوافدون ، واحداً بعد واحد ،
وكلماتهم لا تخرج عن :

- حمداً لله على السلامة يا ست منال . .

- يوم الهنا يا حبيتى . .

- ألف نهار أبيض . .

- أين الفطير المشلتت والقشدة الفلاحى . . ؟

وأم منال بدت وكأنها فى عرس ، تعد أكواب الشربات ،
وتوزع على الجميع ، والبعض يصر على طلب القهوة أو الشاي ،
ومنال تبسم . . وتبتسم حتى تعبت عضلات فمها بعد أن كثرت

المجاملات والأحاديث والترحيب المكرر، حتى بقى فمها مفتوحاً فى ابتسامة جامدة لا تنطفى، ومن آن لآخر تربت على كتف طفل صغير، أو تقبل خد آخر، وتبعثر بينهم الشيكولاته والطوفى، والأطفال يتعاركون ويمثلون الصالة الضيقة بظيائهم ومعاركهم الصغيرة، وأبوها بعينيه الواسعتين فى الصورة يركز نظراته فى عينيها فترتجف كلما وقع بصرها عليه، وتسودها غمرة ألم سرعان ما تذوب فى الضجيج وعبارات الترحيب التى لا تترك لها فرصة كى تسكن أو تستريح.

وفى الوقت الذى عاد فيه إخوتها بلهفتهم الكبرى، وأذرتهم الممدودة النحيلة، وابتساماتهم المختلطة بالدموع، أخذ الضيوف والجيران ينسحبون، مخلفين وراءهم نفايات وأوراقاً ممزقة وأثار بلل وذباباً يلتصق بالأماكن اللزجة التى سقطت عليها قطرات الشرابات من قبل، وجلست منال بين إخوتها ناضرة سعيدة ضاحكة الوجه، وجلسوا من حولها. . ورده شذية متفتحة كبيرة، وحولها زهرات صغيرة لم تفتح تماماً بعد. .

وفى الصباح اليوم التالى طرق بابهم زائر غريب. .
فحملت الأم فيه مستغربة. . وهى تقيسه بنظراتها الحائرة، وتتساءل بينها وبين نفسها عمن يكون. .





أنا الحاج على ..

قالها الرجل الشامخ الأنف وهو يحيل نظراته فى الأم
الحائرة الواقعة لدى الباب، ولم يزدها النطق باسمه سوى حيرة
إلى حيرتها، ورجحت الأم أن الشاب الريفى ذا الجلباب
الجوخ الأخضر، والعمامة الأنيقة، والعنق الغليظ، والذي
تبدو عليه معالم الفتوة والثراء، رجحت أنه لا بد قد أخطأ
قصده، ونزل مكاناً غير الذى يريد، ولم يكن هناك احتمال
آخر، لهذا قالت :

- تشرفنا .. لكن أعتقد أنك قد أخطأت عنوان المسكن
الذى تبحث عنه ..

وكم كانت دهشتها حينما سمعته يقول :

- لم أخطئ ..

- كيف؟؟

- أليس من الأليق أن تسمحنى بالدخول أولاً .

- نحن لا نعرفك . . اسمح لى أن أقول ذلك . .

- لكن الأنسة منال تعرف من أنا . . أنا الحاج على . . شيخ
بلدة شرشابة . .

لم تتعود الأم أن تستقبل فى بيتها منذ مات زوجها هذا
النوع من الرجال ، لكنها أمام موقف مختلف تمام الاختلاف
عن أى موقف آخر ، رجل من الريف ، وذو مكانة ، وابتتها
موظفة فى قريته ، وجاء قاصداً بيتهم لأول مرة ، ولهذا لم تجد
مناصاً من أن تفسح له الطريق ، وتفتح حجرة الاستقبال
المتواضعة التى نادراً ما تفتح ، وراودها قليل من الخجل
لتواضع الأثاث وراثته ، وحانت منها التفاتة إلى الباب
فوجدت الرجل يدخل ومعه عدد من القفف والأقفاص
الثقيلة ، وبلغت خياشيمها رائحة الفطير والسمن البلدى ،
وسمعت أصوات بعض الطيور المحبوسة فى أقفاصها من
حمام ودجاج وأوز ، ووضع الرجل ما معه فى ركن من أركان
الصالة ، وهو يقول :

- كنت على موعد مع أخى . . حكمدار البحيرة . .

فوجدتها فرصة طيبة لكى أزور الأنسة منال فى عطلتها . . إن
منال لها فى قلبنا منزلة كبرى . . كل شرشابة تحبها . . وتعبدها

عبادة، وكأنها بنت البلد من عشرات السنين، وليست مجرد موظفة نزلت قريتنا. . وفرصة ذهبية أيضاً أن تتعرف على حضرتك أنتم ناس طيبون. .

فابتسمت الأم مجاملة، وقالت :

- من أصلك. . الريف كله خير وبركة. .

وأخرج الرجل من جيب داخلي ساعة ذهبية نظر فيها، ثم أعادها مكانها، وبعد ذلك أخرج علبة سجائر فاخرة، وسحب منها واحدة، سرعان ما أشعلها، وأخذ ينفث دخانها مدارياً بعض ما أصابه من ارتباك طفيف، بينما خرجت الأم لتعد له مشروباً بارداً. .

وأخذ الحاج على يتشمم رائحة منال، وكأنه «كلب هول. .» وسدد أذنيه صوب الباب لعله يلتقط صوتها أو يتسمع وقع خطواتها، لكنه لم يلتقط حساً ولا حركة تنبئ عن ذلك كانت خطوات أمها الثقيلة الثابتة، وتحركاتها التي تصدر بحساب. . هما كل ما أدركه. .

ومسح الحجرة بنظراته. . آثار الفقر. . تبدو على المقاعد. . والمناضد الخشبية القديمة. . وطلاء الجدران الباهت، والبساط المتآكل وابتسم في ثقة، وكان هذا المظهر المتواضع قد جعله الله عوناً له وسنداً في قضاء ما جاء ينشده. .

وتتم: «لا شك أن منال وأمها وإخوتها يحلمون بحجرة صالون فاخرة . . وببساط أعجمي ثمين . . ويتمنون أن ينتقلوا إلى شقة واسعة نظيفة . . وفي حى محترم، وهل هناك من لا يتمنى ذلك ويحلم به؟؟»، وتنهذ الحاج على فيما يشبه الارتياح، وأخرج منديله الحريري الأبيض، وأخذ يجفف العرق الذى لم يزل يتصبب فوق جبينه، ثم تحسس شاربه المشذب وعمامته المبحوكة، ومسح يده على صدره مستشعراً ملمس جلبابه الجوخ المريح، ونزل يبصره إلى حذائه اللامع ثم عصاه ذات اليد العاجية، وترنم فى صوت خفيض منغم بأغنية كان يسمعها دائماً من منشد الموال فى مقهى المعلم حامد المليجى «جمال ودلال يا حبيبي» . .

وتذكر كل ما حدث له منذ البداية . .

الحورية الجميلة - منال - التى أشرقت على قرية شرشابة فأدارت رأسه، وسرقت النوم من عينيه، وبات يفكر فيها طوال شهرين كاملين، ويتسقط أخبارها فى المستشفى وخارج المستشفى ويحصى كل حركاتها وسكناتها، ويطليل الجلوس على المقهى المجاور، ويظل ينظر إلى بعيد فيراها وهى تغدو وتروح، ويتبعها حتى تختفى عن ناظريه تماماً، ثم لا يكف عن متابعتها بعد أن اختفت، بل تظل صورتها فى خياله، فيتصورها وهى تدلف إلى حجرة العمليات، أو تصعد إلى

عنابر المرضى، أو تجالس الطبيب في الكشف «آه.. هذا الوغد الأنيق، الذي تتدلى «السماعة» من عنقه في عنجهية وكبرياء.. لا شك أنه خبيث.. تعلم من المدينة وقاحتها وانحلالها..».

لكنه - الحاج على - لم يستطع في يوم من الأيام أن يجبر نفسه على التحدث إليها، كان في نظر الناس عملاقاً ذا كبرياء، لم ولن يطأطى رأسه لامرأة، رغم أنه أعزب، المرأة كانت في نظره شيئاً تافهاً.. للمتعة العابرة، ولا يصح لرجل في مركزه ومكانه أن يدوس كبرياءه وسمعته ليجاذبها أطراف الحديث، ويجتذب رضاها.. الحاج على ليس شاباً مراهقاً، صغير العقل، عندما يريد شيئاً يقصد التوه، رافعاً رأسه، وينتزعه انتزاعاً، ليس التوسل والتضرع من طبعه.. حتى في المسجد بين يدي الله، يقف متغطرساً، ويؤدى طقوس العبادة في عنجهية.. فإذا ما أنهى صلاته، واستدار قائلاً: «السلام عليكم ورحمة الله» قالها بصوت أجش، وهو ينظر نظرات التعالي والكبرياء.. كان جائعاً.. والمائدة على قيد خطوات منه، لكنه لم يستطع أن يرغم نفسه على تناول شيء منها.. فليمت جوعاً ولا هذا.. شيء أصيل في طباعه وتكوينه.. وعندما علم أن المعلم حامد معجب بها ويسيل لعابه اشتهاها لها، ويطاردها ويدعوها لزيارة بيته، أكلت الغيرة قلبه. ويات

الليالى الطوال يتقلب على أحر من الجمر، ويفكر جاداً فى الانتقام منه، لكن المعلم حامد صديقه منذ الصغر، بل أصدق أصدقائه، أكلاً على مائدة واحدة.. حتى «الجوزة» وعليها «الحشيش» مرصوفاً.. كانا يتبادلانها من فم لفم، فضلاً عن أنه ند له فى السطوة والأتباع والمال.. وكظم حنقه وأساه حينما سمع المعلم يقول ذات مرة: «إنها امرأة بمعنى الكلمة.. إنها النعيم.. جنة الدنيا.. يا عالم.. هذه الحورية سوف تورثنى الجنون.. عندما أمسكت بذراعى وأعطتني حقنة خلاصة الكبد ذات مرة، لم أدر من أنا.. ذهب عقلى، وأحسست بيدها اللدنة وهى تضغط على ذراعى.. فتهدت فى عالم آخر..»، وهم الحاج على آنذاك بالانقضاض على عنقه وخنقه حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة.. لكنه سكت على مضض.. وطوال الشهرين كان الحاج على يفكر حتى أرهقه التفكير، ولم يعد يستطيع النوم كل ليلة إلا ساعتين أو ثلاث.. إن غيره يحلم بها من بعيد.. مجرد أحلام، ويهرول وراءها كالكلب ليلقى عليها التحية، أو يقدم لها خدمة ليست فى حاجة إليها، أما هو فيريدها إلى جواره.. بين ذراعيه له وحده.. وعندما يتم ذلك سوف يسحق الديدان القذرة التى تعترض طريقها، ويدمى الأفواه التى تنفوه باسمها، وتطلق همسات الإثم الوقحة.. حتى المعلم حامد هو الآخر، لو

سولت له نفسه أن يمتعض أو ينافسه فسوف يدفنه حيًا، ويهيل عليه التراب . . واحتقن وجهه وهو يستعيد تلك الذكريات، ويجتر هاتيك الأفكار، وعروس فاتنة كحور الجنة، تتهادى فى خياله، وعلى رأسها تاج من الفضة، نظراتها ناعسة، وابتسامتها قاتلة، واستدارة فمها كقبلة الربيع فوق الرياض الرائعة ذات الأريج والجمال الأخاذ، ودار رأسه، غير أن أمها دخلت حاملة كوبًا من عصير المانجو، فهتف:

- أين ذهبت منال؟ . .

- حالاً تعود . . ذهبت مع إخوتها إلى حديقة الحيوان للتزهر . .

- هل ستطول غيبتها؟

- لا أظن ذلك . .

وشعر بالضيق بداية الأمر لغيابها، كانت تملأ روحه رغبة عارمة فى رؤيتها، والاستمتاع بحديثها وطلعتها، حتى لكأنما قد فارقت شرشابة من سنين وليس بالأمس، لكنه تذكر السبب الذى أتى من أجله، والليالى الطويلة التى قضها فى التفكير، والنتيجة الحتمية التى وصل إليها بعقله، والتى صنعها فى الوحدة . . والظلام . . والسهاد . . والتى لا يعلم بها أحد فى شرشابة، ولا يمكن أن تخطر على قلب بشر هناك . . وماذا لو

عرفوا سيتهمونونه بالجنون، شيخ بلد محترم مرموق وأخوه
حكممدار.. تزوج حكيمة.. «ها.. ها.. ها..» ليقولوا ما
شاءوا.. بعض الناس لا يعرفون قيمة الجواهر، وجدتني
كانت دائماً تقول: «القلب وما يريد» وفي قصص ألف ليلة
وليلة أمير تزوج ابنة زبال.. وملك سكب الدموع على قدمي
فتاة يتيمة تجمع الأحطاب لتييعها بدراهم.. وملك يريطانيا
رمى بالتاج وزهد في الملك من أجل امرأة..، والتفت إلى
الأم وقال وهو يشير إلى الأقفاص والقفوف:

- هدية بسيطة نافهة.. أرجو أن تقبلها..

- ولم التعب؟

- التعب من أجلكم راحة.. عيوننا للست منال.. ولأم
منال..

فأطرقت السيدة في حياء أمام هذا الإطراء، وقالت مجاملة
دون أن تعتقد تماماً في صحة ما تقول:

- منال تحبكم.. وتطوى لكم في قلبها أجمل
الذكريات.. أنتم هناك بمثابة أهلها، وليس لها أحد إلا أنتم..
بارك الله فيكم..

ووجد الحاج على الفرصة سانحة أمامه كي ينفذ ما في
قلبه ويستريح، لكنه كان خائفاً.. ونادراً ما يخاف.. هذا

العملاق القوى البنية، صاحب الجاه والقوة، تلثم كطفل صغير أمام أب قاس رهيب، وتعثرت الكلمات ثم توقف نهائياً، تحركت شفتاه فقط، لكنه لم ينطق، وأجال نظرة في الحجر المقامضة الأثاث، والمناضد الصغيرة القديمة، والحيطان الباهتة الطلاء، واسترق نظرة لوجه الأم المتغضن الذي يروى قصة كفاح طويلة عميقة، قصة صراع مع الحياة القاسية، وواتته الشجاعة بغتة.. يجب أن يتكلم قبل أن تأتي منال.. أجل لأن منال في نظره جبل عال ذو جبهة في السماء ليس من السهل تسلقه، والتفت إلى الأم، وقال في لهجة مهتزة:

- لنكن صرحاء يا حاجة.. تعودت دائماً أن أتى البيوت من أبوابها.. شرشابة كلها تعرف من يكون الحاج على.. شيخ البلد.. لست فلاحاً جلفاً.. ربما تظنين ذلك، فأسرتنا عريقة، أختي حكمدار البحيرة.. أبى رحمه الله كان عمدة القرية.. حفظت القرآن لكنى لم أكمل تعليمي لظروف خاصة.. بالاختصار بتك تعرف من أنا.. وبالاختصار أيضاً.. أقول إنى أتيت طالباً يدها.. أخطبها لنفسى.

وكأنما الرجل قد رمى عن كاهله عبئاً ثقيلاً قد أرهقه منذ زمن بعيد، وأورثه الهم والعذاب والأرق، وتنفس الصعداء، وانتابته في هذه اللحظة مشاعر عدم الاكتراث بعد أن قال ما

قال وكأنه يهتف بينه وبين نفسه: «ليكن ما يكون، لقد أبنت عن دخيلة نفسى . . واسترحت . . والبقية على الله . .»، أما الأم فقد ارتج عليها، وباغتتها العبارة الأخيرة، ولم تدر ماذا تجيب لكن صوت الحاج على لم يدع لها فرصة للتفكير بل قال مستطرداً:

- هيه . . ما رأيك؟؟

- إنك لم تمهلنى كى أفكر . . لم أكن أتوقع شيئاً من هذا القبيل . . ثم إن منال لم تزل صغيرة . . ولا أفسى سرّاً إذا قلت لك . . إننا قوم فقراء . . مثقلون بالديون . . علينا التزامات يجب أن نؤديها . . ومنال هى أملنا الأول والأخير، وإخوتها الصغار يجب أن يتعلموا حتى ينالوا حظاً معقولاً من الحياة . . إنها لمسألة شائكة حرجة، ولا أدرى كيف أعالجها . . ألسنت معى فى أن الوقت لم يزل مبكراً بالنسبة لموضوع زواج منال!؟

فى هذه الكلمات الموجزة ألقت الأم ضوءاً على وضع الأسرة الراهن، وبرغم الآلام التى نشبت أظافيرها فى قلب الحاج على الذى لم يتعود أن يرفض له طلب، أو يقال له لا . . سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، بالرغم من كل هذا، فقد بقى الأمل حياً فى قلبه وإن غلفته ظلال من الشك والخوف، لهذا قال:

- كل هذه المشاكل من السهل تسويتها . . وإنى لأخذ على
نفسى عهداً أن أقوم بسداد كل ديونكم ، وأتكفل بكل مطالب
البيت والأولاد . .

فقالت الأم والدهشة لما تفارق ملامحها ونبراتهما :

- هذا فوق الطاقة . .

- إنى أضحى بكل شىء من أجل منال . .

- لكن إلى حد . .

- يا سيدتى ، لست طفلاً ولا مراهقاً . . وإنما أنا رجل
ناضج ذو مركز ، وأفهم ما أقول ومن العار أن أتملص من
وعودى . . الجميع يعرفون ذلك . .

الرجل لا تعرفه الأم لأول مرة تلقاه ، وهو يحاول مخلصاً
أن يذلل كل الصعاب والمشاكل ، ويبدو مصراً غاية الإصرار
على تنفيذ رغباته ، وهى عاجزة تمام العجز عن أن تبرم الأمر
بهذه السرعة ، إنها خطوة خطيرة . . مستقبل ابنتها ، ومستقبل
أسرة عاشت على الكفاف حتى أتمت الفتاة تعليمها ، فى انتظار
الفرج ، والقضاء على كل الضائقات المالية والمشاكل . . تجربة
جديدة من نوعها بالنسبة للأم . . منال تتزوج يا له من أمر
كبير . . ليس بهذه البساطة . .

- أنا جاد فيما أقول، وأستطيع أن أنفذه قبل الزواج ..
ديونكم .. رصيد لأولادكم أضعه باسمك فى البنك .. كل
شئ أنا مستعد له ..

ضاقت الحلقة حول عنق الأم، وأصبح الموضوع واضحاً
مبسوطاً أمامها بكل تفاصيله وحلوله، وبدايته ونهايته، ولعت
فى ذهن الأم بارقة أمل، ومن ثم لم تواصل صمتها بل قالت،
وكان عناية الله قد قذفت فى رأسها بهذا الحل الموقف :

- يا حاج ليست هناك أم عاقلة تضيع على ابنتها مثل هذه
الفرصة، والأم يسعدها أن ترى ابنتها زوجة .. وزوجة
سعيدة .. لكن أأست معى فى أن مثال لها رأيها هى الأخرى؟؟
ألا يصح أن تمنحنا فرصة لعرض الأمر عليها والتفكير فيه؟

- فقط .. أريد أن أعرف رأيك أولاً؟

فقالت الأم وابتسامة قلقة ترسم على ثغرها :

- ألا ترى أن الأمر يخصها أكثر منى؟؟

- لكنك أمها ..

- أجل .. لكنها هى التى ستتزوج ..

- خبرتك فى الحياة، وقلقك من أجل مستقبلها يجعلان
الأمر أمرك ..

- لا شك . . لكن قد تختلف تقاليدنا هنا عنكم فى القرية . . لى أن أدلى بمشورتى لها، وأساعدها بالرأى، ولها بعد ذلك أن تختار، من الصعب أن يكون الإرغام وسيلة مشروعة فى مثل هذه الأمور .

فتمتم الحاج وهو يشعل سيجارة أخرى :
- معقول . .

كانت منال فى هذا الوقت ترح فى حديقة الحيوان بالجيزة، وتنتقل بإخوتها من مكان لمكان، وتشتري لهم الحلوى والمشروبات المثلجة، وتعيش معهم فى جو مرح لطيف أشاعت فيه مشاعر الحب والأخوة والأمومة أيضاً، كانت سعيدة بهذه اللحظات الحلوة التى تقضيها وسط الأشجار، وبين أقفاص الحيوانات، ومسارح الغزلان والنعام، ومرت بذهنها صورة خاطفة للقرية التى تعمل فيها، لم تكن ساخطة تماماً عليها وعلى الحياة فيها، والأحداث التى تلم بها، لشد ما تطورت نظراتها، وأصبحت واقعية وجدية، إنها - حتى فى هذه النزهة - تتشوق للمستشفى ولشاغبات حامد المليجى، وأيضاً للشائعات - برغم وقاحتها - وللطبيب برغم نظرتة النفعية للحياة، ورغم عبثه وحيوانيته، ليس من السهل الانسلاخ عن حياتها وعملها والناس الذين تتعامل معهم . . أوه . .

والباشكاتب عبد المعطى . . ذلك اللثيم الخفيف الظل ذو الوجه
الأصفر والعقل اليقظ المدرب . .

وعندما بدأت الشمس تنحدر عن وسط السماء ،
وشعرت - هى والأولاد - بمعدتها تقلص طلباً للطعام ،
هرولوا جميعاً صوب باب الحديقة ، ليتعلقوا بأول أتوبيس
يقصد حى السيدة زينب .

ودخلت المسكن وهى تثير ضجة مرحة ، وإخوتها يتسابقون
ويضحكون ، لكنها لاحظت على وجه أمها سمات الجد
والوقار ، فرجحت على التو أن أمراً مهماً يشغل بالها ، ولم
تمهلها الأم طويلاً ، فقد قالت لها :

- الحاج على هنا من ساعة . . وقد استعد للرحيل قبل أن
تأتى بلحظات . .

وأشرقت ملامحها بالابتهاج ، واندفعت صوب حجرة
الجلوس ، وكأنها اكتسبت حرارة الريف فى استقباله
للضيوف ، وحفاظه على تقاليد الترحيب والكرم ، وهتفت :

- أهلاً حاج على . . مصر كلها نور بوجودك . .

وابتسم الرجل فى سعادة . . ترى هل تتحقق الأمنى . . ؟؟



عادت منال من عطلتها بعد ثلاثة أيام ، لم تمر الأيام الثلاثة دون عواصف ، لذا كان استمتاعها ناقصاً ، وفوجئت بعرض الحاج على الذى لم تكن تتوقعه ، واستطاعت بعد جهد جهيد هى وأمها أن يقنعا الرجل بالانتظار ، حتى ينضج الموضوع فى أذهانهم ، برغم أن منال أبدت الرفض بادئ الأمر بينها وبين أمها وإن كانت قد عاملت الحاج برقة زائدة ، وأبدت له الكثير من ضروب المجاملة ، وعاد الحاج هو الآخر دون أن يفقد الأمل الذى يداعب أحلامه ، وبعد أن سافرت منال جلست أمها وحيدة تبكى ، كانت واثقة أن ابنتها سوف تبدأ عهداً جديداً من المتاعب ؛ لأن الرجل - كما يبدو - عنيد مصر إصراراً جازماً على ما يرد . كيف تعيش ابنتها غريبة وعلى مقربة هذا الرجل الذى لم يستطع أن يقوله له أحد « لا ؟؟ » وكيف سيكون سلوكه إزاءها فى تلك القرية النائية ، ولم يكن أمام أمها سوى أن تبذل قصارى جهدها فى نقل ابنتها ، ولو أدى ذلك للتضحية المادية .

أما منال فقد كان فى انتظارها مفاجأة جديدة لم تكن تخطر لها على بال . .

وصلت منال إلى القرية فى المساء ، كان الطبيب فى انتظارها بالكشك المعهود . . والمستشفى هادئة خافتة الضوء كمألوف عاداتها ، واستقبلها الطبيب فى بشاشة وشوق ، وصافحها بحرارة ، كانت منال تشعر بإنهاك روحى وجسدى ، أما إنهاكها الروحى فقد كان سببه الأحداث الجسام التى أثارها الحاج على ، وإنهاكها الجسدى فسببه ذلك السفر الطويل المضى وألقت بجسدها المتعب فوق مقعد إلى جوار الطبيب ، وتشعب بهما الحديث عن السفر والأهل والأقارب وأحوال المستشفى ، ثم سادهما صمت مطبق ، وشعرت منال بالتعب يزايها ، ويقليل من الانتعاش يسرى فى كيانها فصعدت أنفاسها فى ارتياح ، وشردت بفكرها حول الحاج على والخطة التى ستتجهجها معه ، إن حياتها الجديدة تحتاج إلى انقلاب شامل ، إلى تخطيط لبق دقيق وإلا ضاعت . . إنها لا تحب الحاج ولا تفكر إطلاقاً فى الزواج منه ، إنه ما يكون عن روحها وقلبها وثقافتها . . ليكن أخوه حكمداراً فهى لن تتزوج الحكمدار ، وليمتلك ما شاء من أفدنة ومال ويطش ورجال فهى لا تريد «ميليشيا» حولها ، ولا تطمع أن تتناول طعامها فى ملعقة من ذهب ، وتشرب فى كأس من فضة ، إنها لم تخلق لمثل هذا الرجل ، ولا لمثل هذه الحياة ،

ثم إنها أضعف من أن تتحدى رغبة هذا المخلوق وسطوته . .
هؤلاء الرجال - فى القرية - يعيشون بعقلية الفرسان ، مثلهم
الأعلى أبو زيد الهلالي ، المرأة التى يرغبون فيها ينتزعونها
انتزاعاً ، يختطفونها على أسنة الرماح . . ليس هناك من حل
سوى الفرار . . الفرار بجلدها من هؤلاء الطامعين . . ليست
بمستطاعة وليس من المصلحة أيضاً أن ترفض فى وضع النهار ،
وتجابه المنهزمين ، إن نار الهزيمة وحقداه كليهما أعمى . . شرس
لا يعرف العدالة ولا الرحمة . .

وانتفضت « منال » كمن لدغتها حية ، حينما شعرت بشيء
رقيق ناعم مفاجئ يتحسس خصرها وهبت مذعورة ، لترى
ماذا حدث ، وقهقه الطبيب ، وهو يرى الرجفة تسرى فى
كيانها ، والشحوب يسود وجهها ، كانت يد الطبيب هى التى
تداعبها فى خبث ، وتستثير أنوثتها وأدركت منال فى لحظات
ما حدث ، وعلى الفور تذكرت الرجل ذا العينين الواسعتين
اللتين تطيلان إليها النظر دائماً فى حنان ممزوج بالقسوة . .
عيني أبيها وهو يحدثها عن الشرف والفضيلة وحسن الخلق ،
وقبل أن تنطق بشيء ، عاد الطبيب فمسك يدها وهو يكاد
يسيل رقة وعدوبة ، ويقول :

- لماذا تخافين؟؟ الحب والمداعبة لا يثيران الفزع ، وإنما
يولدان النشوة ، ألم تجربى من قبل؟

فقلت فى شراسة وحدة :

- لا يا دكتور . . يجب أن تكف عن هذا وإلا . .

- لشند ما تغيرت .

- أجل . .

- حالتك ليست على ما يرام . .

- بل فى كامل صحتى وقواى . . بأى حق تفعل ذلك . . ؟

فقال فى غضب مصطنع :

- إنك تؤلمتنى بهذا التصرف الأبله ، لماذا تفلسفين
اللحظات السعيدة وتشوهينها ؟

- لأنها سرقة . . اغتصاب . .

- ولم لم تقولى هذا الكلام من قبل ؟ .

- أرجوك . . لا داعى لتجريحى . . لا أستطيع أن أحتمل
أكثر من هذا . .

وأطرق الطبيب فى يأس ، « يبدو أنى لم أختبر الوقت
المناسب » ، ومع ذلك فقد راوده الأمل من جديد ، فقال وهو
يدارى غضبه :

- لا بأس ، قد تكونين أحسن حالا فيما بعد ، لقد عزمت

على قضاء لحظات سعيدة - أنا وأنت - بالإسكندرية فى عطلة
آخر الأسبوع ..

- تستطيع أن تذهب آتى شئت .. أما أنا فلا .. ليس لأحد
سلطان على .. مفهوم؟!

وأخرج الطبيب علبة سجائره .. وأشعل واحدة، كانت
السيجارة ترتعش بين أصابعه، ووجهه أحمر فى لون الدم،
ينفخ فى عصبية، وتتم فى لهجة حانية خفيفة:

- إنى أعتذر .. يبدو أنى كنت سبب التصرف لحد كبير ..
معذرة يا صديقتى .. ثم إننا لم نفعل إلا ما يفعله الكثيرون .

- أو تظن من اللائق أن نتخذ العابئين والخطاة مثلاً أعلى
نقتدى به؟؟

- عندك حق ..

ورفع نظره إلى وجهها الفاتن المكفهر، وشفيتها المزمومتين
فى غضب، وعينيها الساهمتين فى وجوم، وشعرها المنتشر
فوق جبينها البض المشرق، كانت رائعة فى غضبها، مغرية فى
صدودها ونفورها، وتمنى فى تلك اللحظات أن يشدها إليه،
ويهوئ على وجهها ونحرها، ويأكلها أكلاً، ويخمش هذه
البشرة البضة حتى يشبع ويرتوى .. إنه غارق فى العمل
صباحاً ومساءً .. فى العمل المشروع بالمستشفى وغير المشروع

فى بيوت فلاحى القرية والقرى المجاورة، إنه لا يكاد يجد لحظات هادئة كهذه، وفى هذه اللحظات يفكر فى أمره . . فى مستقبله ويفكر أيضاً فى مطالب روحه وجسده، ويحس بحرقه شديدة إلى امرأة، إلى الجنس الآخر . . وأطال فيها النظر من جديد، وزحف ببصره فوق شعرها وجبينها وعينيها وشفتيها، وصرخ كحيوان جائع جريح :

- تستطيعين أن تفعلى ما شئت . . اصرخى . . استغشى . .
أما أنا فلست بمستطيع أن أقاوم فتتك الطاغية . .

ووثب عليها كوحش مفترس، واحتواها بين ذراعيه وقد ماتت الصرخة التى همّت أن تطلقها فوق شفتيها، ولفحت أنفاسه الحارة وجهها، وتلاصق جسده بحسدها، وشعرت كأنها قد ثوت فى أخدود من جسده الدافئ الشائر، وشعرت أيضاً بضعف مريع . . إنها لحظات الضعف التى كثيراً ما تتناولها إذا ما قهرها رجل، ولم تكذب على نفسها لقد كانت فى هذا الوقت - برغم ثورتها ونقاشها الحاد مع الطبيب حول المثل العليا، والحقوق والواجبات - برغم كل ذلك كانت تحس بحاجة شديدة إلى رجل . . رجل يحميها، ويبعد عنها غارات الذئاب الراغبين فيها وإن كان هو بدوره ذئباً مثلهم، كانت فى حاجة إلى رجل تبشئ ألما وحيرتها وشجونها، وتسكب على

صدره دموع الحيرة والضعف والخوف، ولم تجد معها سوى الدكتور رمزي الشره الجائع المثقف الأنيق..

غير أن المشهد المثير لم يكن قد اكتمل بعد، كانت هناك عين لا تنام.. عين ترقب كل ما يجرى داخل الكشك بين الطبيب ومنال، إنها عين الباشكاتب عبد المعطى.. الذى لم يعرف الراحة طوال أيام ثلاثة مضت، كان يقف كل يوم خلف زجاج نافذة عنبر المرضى ساعات طويلة فى النهار والليل، وينظر إلى بعيد فى انتظار عودتها حتى كلت يمينه اليتيمة، وأصابها المرض، ومع ذلك بقى خلف النافذة الزجاجية يرقب روحه التى ذهبت بعيداً، ويرسم لها فى خياله صورة شفافة نورانية وهى بين أحضان أمها، ووسط إخوتها، وفى شوارع القاهرة التى تضج بالحركة والحياة، وبقي هكذا حتى عادت، كان يحس بقرب مجيئها فيخفق قلبه خفقات حلوة ويستشعر ألماً.. ألماً مقبول المذاق، وكاد يقذف بنفسه إليها وهى تقطع الممشى بين باب المستشفى ومبانيها، ويختطفها بين أحضانه، لكنه تذكر الحقيقة المرة المعذبة.. إنه لم يزل فى الدور.. الثانى.. وفى عنبر المرضى.. ثم إنه الباشكاتب عبد المعطى.. العليل الفقير الذى يأخذ سمسرة على المرضى الخصوصيين من الطبيب، والذى يلتقط البقشيش كما يلتقط الكلب لقمة خبز تقذف إليه من بعيد.. ألم تحاول منال نفسها أن تعطيه بقشيشاً حينما

أحضر لها الخطاب؟؟ رحم الله امرأ عرف قدر نفسه . . لكنه يحبها فى جنون . . ولا يستطيع مخلوق ولو كان الشيطان نفسه أن يقف حائلاً بينه وبين منال ، ومن ثم هرول عبر السلم قاصداً الكشك الذى يجلس فيه الطبيب مع منال ، لكنه تراجع قبل أن يدلف إليهما ، ليس من اللائق أن يتزل عليهما هكذا بسرعة دون سابق إنذار ، وبدون سبب واضح ، وقبل أن يلتقط أنفاسه اللاهثة ، أخذ يروح ويحيى حول الكشك فى حيرة ، وحانت منه التفانة إلى نافذة صغيرة ، وحينما نظر خلالها رأى منال تجلس فى استرخاء ، والطبيب إلى جوارها يأتى بحركات مرتبكة غير طبيعية ، ثم عاد إلى التدقيق فى وجه منال ، وتمتم : «يا لها من ليال ثلاث يا عبد المعطى . . ترى ماذا أفعل لو غابت شهراً . . لو انتقلت إلى وحدة صحية أخرى؟؟ لا شك أنى سوف أجن . . إنها حلوة . . حلوة جداً . . حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون . . هذه الإلهة الصغيرة روحى تعبدها . . أستغفر الله . . أو شك أن أكفر . . رحمتك يا رب . . إنها معجزة خارقة . . » ، وقطع عبد المعطى مناجاته حتى رأى يد الطبيب تزحف كالحية نحو خصرها ، وكاد يحطم النافذة ، ويعتصر عنقه لكن موقفها كان نبيلاً رائعاً . . وتمتم : «صدق ظنى . . إنها أكبر من أن ينالها أحد بسوء . . إنها محجبة . . » وفاضت به السعادة وإن كان قد حقق أيما حقق على هذا الوغد العايب . .

وتمنى أن يذهب إليه ، ويقول : «أيها الملاك . . ملاك الرحمة . .
إنى أبصق فى وجهك . . » وطاب لعبد المعطى المقام جوار
النافذة ، وبقي هكذا حتى كرر الطبيب المحاولة بصورة عنيفة
جديدة ، وخاف عبد المعطى أن تتحطم أحلامه وينال الرغد
مشتهاه . . فدار حول الكشك قاصداً الباب وهو يغلى . . لكنه
غمغم لنفسه : «تمهل يا عبد المعطى . . أين لباقتك ودهاؤك؟
يجب أن تكون خبيثاً مثله . . يكفى أن تفسد خطته ، وتنقذ
المسكينة من برائته بطريقة مهذبة . . شيطانية» ، فابتعد قليلاً . .
ثم أخذ يضرب الأرض بقدميه فى قوة كى يسمعا وقع أقدامه ،
وصاح وهو يقترب من الباب من جديد :

- يا دكتور . . يا دكتور . . الحق . . المريض سوف يموت من
شدة المغص . .

كانت منال هذه اللحظة بين ذراعى الطبيب فى شبه
إغماءة ، والطبيب كثر هائج ، وهبطت مسامعهما صيحات
عبد المعطى وكأنها هادم اللذات . . فأفاقت منال إلى نفسها ،
وهزت رأسها وكأنها تصحو من حلم مثير ، وتمتت منال فى
ارتباك والدموع توشك أن تنهمر من عينيها :

- لم يكن تصرفاً سليماً . .

وأخذ يصصر على أسنانه فى غيظ ، وصدره يعلو ويهبط ،

والعرق الغزير يسيل فوق وجهه المحتقن، وأخرج على الفور سيجارة، ثم أشعلها بيد مرتعشة:

- حسنًا . . تستطيعين أن تذهبي وتعطيه حقنة «أثرويين» حتى يزول المغص . . وكان عبد المعطى هذه الأثناء قد بلغ عتبة الباب، فوقف جاهداً يحدق فيهما وابتسامة شاحبة مهتزة تلمح فوق شفثيه، ولم يحاول أحدهما أن ينظر إليه، وتتم في تعثر:

- حمداً لله على السلامة يا ست منال، أوحشتنا كثيراً . .

- متشكرة يا عبد المعطى . . سوف أغير ملابسي في لحظات، وألحق بكم في العنبر . . تستطيع أن تسبقني إلى هناك حتى أحضر الحقنة أيضاً وأعود . .

ومشى عبد المعطى عبر المشى الطويل، والظلام يغلف كل شيء ومن آن لآخر يلتفت إلى النافذة الصغيرة المضيئة وكأنها عين الشيطان، ثم يتطوح في مسيره كالسكران الترق، وفي قلبه دموع تسح بلا هوادة، وبذرة من بذور الحقد تنمو . . ترعرع في قلبه الكسير المحطم الناقم، ويهتف حانقاً: «الذئاب . . الذئاب . . هذه الفراخ الصغيرة الرقيقة كيف تأمن على نفسها منهم؟» .

وفي الوقت نفسه كانت منال تلم شعثها لتقصّد حجرتها،

وترتب ما تهدل من هندامها أثناء السفر وبعد السفر ، وقال
الطبيب وفي نبراته معنى الأسف والاعتذار :

- لا أظن أن عبد المعطى قد شك فى شىء . .

- أعتقد ذلك . . لأن صوته بلغنا قبل أن نرى وجهه . .



وعندما عادت منال من حجرتها ، وقصدت لتوها عنبر
المرضى ، وهمت أن تصعد السلم ، برز لها فى الظلام المعلم
حامد المليجى ، قال والبسمة نفسها فوق شفثيه :

- لا تخافى . . أنا هنا مريض . . جئت لإجراء عملية
الزائدة الدودية . .

ولم تنطق منال بل بقيت ساكنة لبضع لحظات ، ولما همت
بأن تواصل صعود السلم ، أمسك المعلم بذراعها ، وقال فى
صوت جريح :

- مبروك . .

- ماذا تقصد؟؟

- أقسم أن الحاج على كان عندكم فى مصر . .

- وكيف عرفت؟ .

- سمعت أن هناك شيئاً اسمه الحاسة السادسة ..

ونزعت منال ذراعيها منه والدهشة تستولي على أقطار
نفسها ، لكنه لم يعطها الفرصة كي تفلت ، بل قال فى إصرار
من يوقن بقدرته :

- لن يتزوجك غيرى .. الآن اصعدى السلم إذا أردت ..



- آه... يا إلهى... أريد أن أنام... رحمتك يا رب... قالتها منال فى يأس قاتل، ووضعت راحتها فوق جبهتها فوجدتها تلتهب، والصداع شديد المراس لا يؤثر فيه الأسيرين، ومشاهد كثيرة مؤرقة تتوارد على ذهنها المكدود المشوش، والفراش تحتها قد نبا بها، وكأنها مصنوع من أشواك... من مسامير حادة، والبعوض يطن من حولها فى صفاقة، ويلتصق ببشرتها الرطبة فى عناد، ولا تكاد تدفعه حتى يعاود السقوط من جديد... حتى بعوض شرشابة هو الآخر يضايقها، ويساهم فى عذابها!! وأخذت تتقلب فى فراشها حائقة، والصور المتلاحقة تفرض نفسها فرضاً على ذهنها، وهى تدفعها فى عنف، ثم فى رفق وتوسل، ولا فائدة، وصرخت فى حنق: «لا أريد أن أتزوج... لعنة الله على الزواج» ولم تستطع أن تستغرق فى النوم إلا عندما ظهرت فى الأفق الشرقى طلائع الفجر...

وغادر عبد المعطى المستشفى إلى بيته بعد يومين من عودة منال، وكان لخروجه سبب، فقد جاءت إليه منال فى اليوم التالى، آملة أن ترفه عن نفسها بالجلوس معه، والاستماع إلى نوادره وأشعاره التى تبدأ وتنتهى - فى الغالب - بمدح النبى والصلاة عليه حتى ولو كانت قصائد غزل، واستطاع عبد المعطى بمهارته وروحه المعنوية المرتفعة أن يخفف عنها كثيراً من الآلام، وأن ينسيها - إلى حين - ما يأخذ بخناقها من مشاكل عدة، واستلقت منال على ظهرها من الضحك، وأشرق وجهها بالمرح، كانت تريد أن تغرق فى الضحك، وتذيب همومها فيه، إن مشكلتها أكبر منها، وليس ثمة وسيلة سوى الفرار . . والفرار فى بعض المعارك قد يكون خطة موفقة، وحلق عبد المعطى بروحه فى عالم وردى وضياء الأسارير حينما وجد منال إلى جواره تضحك من أعماقها وتميل عليه دون تحرج، وتقرصه من خده، أو تضربه على صدره ويده فى دلال، فنسى نفسه فى خضم اللحظات السعيدة الفريدة . . وانتابه حينذاك شعور غريب . . شعور خاص لا يلم بالنفس إلا فى أوقات نادرة . . وبداله أن كل شىء طوع يمينه . . الناس . . الحياة . . والأمل . . شعور يخيل إليه إزاءه أنه قد أصبح ملكاً صغيراً له تاج، يأمر فيطاع . . ومنال بجانبه لا حواجز ولا تكلف، هى منه وهو منها . . تمازجا قلباً وقالباً . . فقال فى نبرة واثقة لينة :

- منال ..

- نعم يا باشكاتب ..

- أريد أن أعترف ..

- لست قسيصة .. وليس لدينا كرسى اعتراف ..

- إني جاد ..

- تكلم يا مضروب ..

- أنا أحبك ..

وضحكت منال بصوت عال ، ضحكت كما لم تضحك من قبل ، وأخذت تضربه وتقرصه في عنف وهو مخدر الروح والحواس لا يكاد يحس شيئاً ، فأطال إليها النظر بعينه الوحيدة ، وقال :

- مرة أخرى .. أعترف إني أحبك ..

- دمك خفيف .. والنبي ظريف ..

وواصلت ضحكها وشغبها ، أما هو فقد بقى واجماً ، مرتعش الشفتين ، يعلو وجهه الشحوب ، ناظراً إلى بعيد ، إلى عالم رائع بعيد المنال لا يراه أحد إلا هو ، ثم عاد فقال بصوت أجش قوى ينطق بالإصرار والعناد :

- لم تضحكين؟؟ أقول لك .. إني أحبك ..

- أتريد أن تتزوجنى أنت الآخر؟؟ .

فتمتم فى قلق :

- أنا الآخر؟؟ هل هناك من رغبوا فى ذلك حقيقة؟

فقال وعلامات المرح والسعادة لم تغادر ملامحها :

- أنت نائم . . الحاج على . . المعلم حامد المليجى . . وأنت أيضاً . . أنتم الأقوياء الثلاثة فى شرشابة . . ترغبون فى الزواج منى ، لم يبق سوى الشيخ المداح فتمت الرواية فصلاً . . هيا انزلوا إلى الحلبة . . واحملوا سيوفكم وأنا للمتتصر . .

- أحقاً حدث ذلك؟

- أو تعتقد أن الحاج على قد سافر إلى القاهرة لوجه الله؟ وهل تظن أن المعلم حامد فى حاجة إلى عملية الزائدة الدودية فعلاً والإقامة هنا فى المستشفى؟

وفاض بها الغيظ ، وعادت إلى ذهنها صورة المشاهد المتعبة التى ما فتئت تلح عليها من آن لآخر ، وصرخت حانقة :

- أيها الأغبياء . . أنا أربى أيتاماً . . أحافظ على كيان أسرة ، ثم إنه لم يمض على بينكم أكثر من شهرين . وأنت يا عبد المعطى . . ألم تجرب الفقر . . ؟ كلكم ذئاب وتستهوننى . . فاكهة جديدة . . يسيل لعابكم من أجلها . . تقليعة مثيرة تلفت

النظر . . لو كان لى أسرة وعصبية لقطعوا ألسنتكم . . انظر إلى الحاج على والمعلم حامد، إنهما صديقان منذ الصغر . . كلاهما قوى، لم يستطع أحدهما أن يواجه الآخر . . لكنهما واجهاني منفردين . . وأنت . . أنت أيها المسكين . . أما كان الأجدر بك أن تفكر فى صحتك . . وأسرتك . . ولقمة العيش؟ أقسم أنك لو تقدمت لبائعة فجّل فى شرشابة لسخرت منك . . لكنك تواجه غريبة مثلى دون خوف . . وسقط عبد المعطى من عليائه . . من العالم الوردى الرائع الذى وشاه له خياله المريض الساذج، وصحا على الحقيقة المرة . . إن بائعة فجّل لا ترضى به . . وبدت منال أمامه كبيرة شماء، ذات عقل ومنطق رزين وقح، لم تفكر فى ماضيه . . فى أقلامه وأوراقه، ولا فى كفاحه من أجل إنشاء هذه الوحدة المجمعّة ومستشفاهها، ولم تفكر فى قلبه الذهبى، ولا فى حبه الكبير الذى بنى هيكله من دمه وروحه وآماله، وتتم فى حسرة تمزق نياط القلوب:

- سامحك الله . . لم أقصد الزواج منك . . فقط أردت أن أعبر لك شعورى . . أردت أن أقول إنك كل شيء فى حياتى . . سواء ضايقت هذا أو لم يضايقت لكنى أعدك وعداً جازماً . . وهو أنى سوف أقلم أظافر الذئب التى تحوم حولك . . الحاج على . . المعلم حامد . . والطبيب هو الآخر إنه نذل نجس . .

وأدارت منال رأسها إليه فى دهشة، وقد طرقت سمعها
العبارة الخاصة بالطبيب، وقالت:

- مَنْ قال ذلك؟

- لا تحاولى أن تنكرى..

- إنك تهرف بما لا تعى..

- لقد سخطت على الحاج والمعلم.. وعلى أنا
أيضاً.. وتجاهلت الطبيب.. أو تظنين أن أناقته ومركزه
يغفران له سخافاتة؟؟ إن عيني لا تنام.. واعدرينى إن كنت
أجأ إلى تلك الوسائل الخسيسة لتتبع تحركاتك وأنبائك.. لم
أكن أقصد الإساءة إليك كنت شريف الغاية..

معنى ذلك أنه كان يتجسس عليها، ويرصد حركاتها
وسكناتها، ويحرمها أبسط حقوقها الشخصية فى التصرف
بحرية وانطلاق، وألمها أن يصل الوضع إلى هذه الدرجة الشنيعة
من الاضطهاد والتضييق.. إنها تكاد تختنق.. لكانها زهرة
غريبة غرست فى تربة غير تربتها وفى بيئة غير بيئتها، كل هذا
ومع ذلك يقول لها إنه شريف الغاية، وهتفت منال فى غيظ:

- شريف الغاية.. حسناً.. تماماً مثل الدبة التى قذفت
بخجر كبير ذبابة كانت تقف على وجه صاحبها فقتلته.. أليس
كذلك أيها الأريب الذكى.. ال.. شاعر؟؟

فقال عبد المعطى وهو مطرق أسفاً:

- هذه قسوة ..

- إنها نذالة منكم جميعاً .. هذه القرية مملوءة بالذئاب
والبعوض والذباب ..

- إنك تقتلينى بذلك ..

- وأنت تهبنى الحياة الحرة التى تخصنى كإنسانة!! كنت
أحسب الفلاحين أطهاراً بسطاء .. هادئين لكن للأسف ..

فتمتم عبد المعطى وعيناه مخضلتان بالدموع:

- نحن طيبون .. بيض القلوب .. قد نسيء التصرف
ونخطئ بغير قصد .. ولأستعير كلماتك .. مثل الدبة التى
قتلت صاحبها حينما همت بقتل الذبابة .. اعذرني نحن قوم
نعيش فى جهل وجوع وغرور لسنين طويلة .. أو تقبلين
عذرى؟؟

وانتصبت واقفة دون أن تجيب، وقصدت من فورها إلى
حجرتها، وأرسلت للطبيب بطاقة تستأذنه فى الراحة باقى
اليوم فى حجرتها، لوعكة طارئة ألمت بها.

هذا ما حدث بينها وبين عبد المعطى، وهكذا خرج من
المستشفى محطماً يائساً، يثقل روحه الندم والفشل والعذاب،

وإن كانت حالته الصحية قد تحسنت كثيراً، وأصبح كبده فى حالة غير سيئة، وجرى الدم فى وجهه، وتغلب على كثير من ذلك الشحوب الذى لازمه فترة طويلة من الزمن.

وعندما ارتقى فوق حصيره البالية فى الحجرة المختصرة الضوء فى بيتهم، نظر نظرة طويلة إلى الركن المعهود حيث تكسأ أوراقه ومحبرته وأقلامه، وقد تراكم عليها التراب. . وما إن جاء الليل حتى أحضر لمبة غازية مضاءة، و«طبلية» خشبية، ونشر أمامه الأوراق، وخلع ملابسه، وبقي لابساً فانلته وسرواله الأبيض. . ملابس الشغل وسمى بسم الله الرحمن الرحيم، وأخذ يسطر الحروف الأولى فى كتاب الانتقام الأسود. . الانتقام من الأقوياء الذين يستهينون بضعف امرأة ويطاردونها ويضيقون حولها الخناق ويلاحقونها بالشائعات، ويسلبونها حرية الاختيار، حرية الرفض أو القبول. . وكان عبد المعطى هو الآخر جديراً بأن يعاقب. . لكن يكفيه ما تعرض له من قوارص كلامها، وسخرياتها الغاضبة التى جرحت كبريائه، وهدت روحه وكيانه. . كان فى رأس عبد المعطى ثلاثة رجال يكرههم بصدق وإخلاص. . يكرههم كما لم يكره أحداً من قبل: الحاج على. . المعلم حامد المليجى. . الدكتور عزمى. . عندما يزول هؤلاء من الطريق سوف ترتاح منال. . وتنكسر حدة الصراع الرهيب. .

وينهزم الذئاب . . الذئاب التى تعيش بعقلية الخطف والغدر والنهم . . المعلم حامد المليجى تاجر سموم . . والحاج على شيخ البلد قاطع طريق . . متعجرف يحيا على أمجاد زائفة . . الطين الذى يملكه ، وأخيه الحكمدار ، وعصبيته الظالمة المتجبرة . . ينهب بضائع الجمعية التعاونية ، ويأخذ من علف المواشى والسماذ أضعاف أضعاف ما يستحق ، ويحرم صغار المزارعين الضعفاء . . ويشجع العصابات واللصوص والخارجين على القانون ويحميهم ليكونوا له عوناً وسنداً . . والطبيب . . هذا النفعى الذى لا يفكر إلا فى المال والعربات الأنيقة وتكوين ثروة بأسرع ما يمكن . . لم يكن يصلح له إلا حزب من الأحزاب الجشعة التى عفى عليها الزمان . . إنه يمارس المهنة خارج المستشفى بغير حق ، وأحياناً يبيع عقاقير المستشفى لمرضاه الخصوصيين ، ثم يحاول أن يسرق شرف فتاة مسكينة مثل مثال . .

والآن لنكتب شكوى للمباحث الجنائية عن نشاط المعلم حامد المريب ، ونحدد بالضبط المكان الذى يخفى فيه سمومه ، والأوقات والأماكن التى يعقد فيها سامره المشؤم . . وشكوى أخرى لمدير المركز عن الحاج على وسرقاته فى الجمعية التعاونية وعبثه بقداسة الأمن ، وقد ينقذه أخوه الحكمدار ، ولذا يجب إرسال شكوى أخرى لوزير الداخلية . . مثل هذه الشكوى لن

يستطيع أحد أن يهملها .. أما الشكوى الأخيرة فلم إلى وزير الصحة فوراً، يجب أن تأتي حملة حقيقية سرية وعلنية للتأكيد من كل المخالفات والضرب على أيدي العابثين، والذين يخونون الثورة الكبرى والمبادئ الجديدة النظيفة التي تدعو إليها في كل وقت، وفي كل مكان.

ولكن قبل أن أبدأ يجب أن أصفى حسابي نهائياً مع منال، وأمسح ما علق بروحها الشفافة الطهورة من حزن وألم؟

وأمسك قلمه، وسطر كلمات قليلة: «عزيزتي منال .. أكرر أسفى لما حدث، لقد أخطأت خطأ جسيماً لا شك فيه .. اعذريني .. إنها لحظة ضعف وسوء تصرف .. سأكون دائماً طوع أمرك .. لعلى أكفر عن خطأ بدر منى .. والله يقول: ﴿وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ .. وأنا كنت مريضاً .. ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١] .. وأنا نصف أعمى .. وأراد أن يقول وليس على العاشق الملهوف حرج، لكنه لم يستطع أن يتمادى .. ووقع الورقة، واستدعى ابن أخيه وأرسلها إلى منال ..

وابتسمت منال وهي تقرأ كلماته الوفية الصافية التي تثير الضحك والألم معاً، وأخذت تعيد فقراتها مرة ثانية، ثم وضعتها في جيبها وشردت فيما حدث أمس الأول، لشد ما

كانت قاسية معه، جافة الطبع . . كانت جلاذاً غليظ القلب
يهوى على ضحيته بسوطه دون رحمة . . تارة هو دب . .
وتارة أخرى ذئب . . قاموس من الكلمات الجارحة صوبتها
إلى قلبه . . قلبه الذهبي . . إنها ترى فى عينيه شيئاً لا تراه فى
عيون الآخرين . . شيئاً تدركه بروحها وقلبها أكثر مما تدركه
بحواسها الظاهرة . . هذا الإنسان العليل الفقير الشاحب
الوجه يحبها حباً لو وُزِعَ على أهالى شرشابة لكفاهم
وفاض . . وتلك هى الحقيقة التى شوهاها حنقها وثورتها على
مطاردة الذئاب لها . . أولئك الذئاب الذين تتمنى أن تتقم
منهم عندما تتاح لها الفرصة . . لكنها لا تستطيع أبداً أن تنسى
تلك النظرات القاهرة التى تصرخ بالشهوة . . وتبعث الرعب
فى قلبها نظرات المعلم حامد المليجى . . هذا الرجل لا تفهمه
مطلقاً، ما أسرع ما فهمت الحاج على . . فى جلسة واحدة . .
وعبد المعطى هو الآخر لم تجد صعوبة فى فهمه . . والطبيب
المثقف كان أسهلهم جميعاً فى فهم طويته ونواياه . . لكن
المعلم إنسان غريب حقاً . . وتنهدت . . وحانت منها التفانة
فوجدت رسول عبد المعطى لم يزل واقفاً بالباب . . فأحضرت
ورقة علاج وكتبت على ظهرها :

«عزيزى الباشكاتب . . أنا التى أخطأت . . وأظنك مقدراً
لظروفي التعسة يا عبد المعطى . . إن كنت قد أحببت إنساناً فى

شرشابة فهو أنت .. أنت وحدك .. لأنك إنسان نبيل تعرف
كيف تحب .. وكيف تخلص .. وإليك قبلاتى .. قبلاتى فقط
على الورق .. وليس على القبلات الشفوية أى حرج .. » .

وانتعث عبد المعطى أيا انتعاش ، وصوت مذياع قريب
يترنم « الحب من غير أمل أسمى معانى الحياة » ، وأكبَّ على
الورق فى حماسة وهمة ، وتمتم :

- والآن نبدأ بابن المركوب .. الحاج على ..





لم يكديمر وقت قصير حتى اشتعلت العواصف في القرية، جاءت الكوارث يأخذ بعضها برقاب بعض، لقد أصابت الآفات شجيرات القطن الخضراء فجأة، وبدأت الديدان الخيشة الصغيرة وكأنها شياطين محجة لا تجدى معها مقاومة، وبعثرت المواد الكيميائية أكداً في الحقول وضج الفلاحون بالشكوى، وغصت بهم مساجد القرية، ووقف الشيخ المداح -شيخ الطريقة الصوفية- إماماً لهم وصلوا صلاة الإغاثة، والألوف من خلفه يؤمنون على الدعاء، بقلوب واجفة تخاف هول المصير، وترتعد من المستقبل الغامض... ولم تنفع الكيماويات والمبيدات الحشرية ولم تستجب الصلوات ولا الدعوات الحارة، وما هي إلا أيام قلائل حتى كانت أعواد القطن الخضراء تقف عارية وقد جفت أوراقها وهزلت هياكلها، كان مظهرها يوحى بالضياح والفقر وغضب الله... ونساء يقفن على شاطئ التربة، وعيونهن إلى الكارثة

الكبرى تطيل النظر، وشبح الغد المحزون يتراقص كئيباً محنقاً، فتتفرط الدموع من بين أهدابهن، ويولولن وكأنهن قد فقدن عزيزاً لديهن . . والرجال يشيحون بوجوههم عن المشهد الحزين، ويضعون أكفهم فوق أعينهم لتحبس الدموع، وتدارى الأمل الضائع . . والشعابين الصغيرة القاسية تملأ الأرض . . وتلتهم حطب القطن الجاف .

وساد القرية وجوم كالموت . .

الديون المتكدسة لن يستطيع أن يسددها أحد . . والعرائس الحسان لن تدق لهن الطبول، ولن تقام حفلات الزفاف العامرة، والفلاحون لن يستطيعوا تسديد الإيجار للملاك، والعمال -الذين يجمعون الذهب الأبيض كل عام- سوف يتعطلون، لن يجدوا شيئاً يجنونه، ولن يفرح الأطفال بالملابس الزاهية الألوان، أو يذهبوا إلى مولد السيد البدوى فى طنطا مثل كل عام، ومتاجر القرية ومجلات الجزارة أصحابها لن يجدوا من يتعامل معهم . . وأصبحت القرية كمريض يحتضر . . لكن ساعات احتضاره تطول . .

وذاث يوم خرج بعض الفلاحين يحملون فئوسهم الصغيرة، واتجهوا فى خطوات كليلة هدتها الكارثة وأرعرشها الخوف من المستقبل نحو حقولهم، ما الفائدة فى ترك هذه

العيدان الجافة الميتة فى الأرض؟ إنهم لو تركوها فستكون مثل جثث متعفنة تثير الأسى والحزن، وتملأ الجو بالروائح الكريهة. . لا مكان للموتى بين الأحياء. . وهتفوا «عوضنا على الله»، وأخذوا يقطعون النباتات المصابة فى كل حوض من أحواض الزراعة، وفى العيون دموع. . وبدت بعض مساحات الأرض بعد ذلك سوداء مكهفرة عارية من كل شىء، والشعابين الصغيرة ما زالت تتمرغ فى التراب. . وعاشت القرية فى حزن وظلام وأسى. . عام طويل سيقضونه فى فراغ محزن يستدينون ويجوعون ويعرون، ستتوقف الحياة. . وتغيض المسرات. . ويطن البعوض، وتخور البهائم، وتعلق المزاود الفارغة. . وتموت الآمال لعام كامل. . وفى ظلام الليل تنطلق أصوات جريشة «ربك لا ينسى أحداً»، وخطيب المسجد يقول: «سبحانه.. يسمع ديبب النملة السوداء، فوق الصخرة الصماء، يرزق الطير تغدو خماصاً، وتروح بطناً، والله هو الرزاق ذو القوة المتين..».

وجلس الباشكاتب عبد المعطى يفكر فى أمر أسرته الكبيرة العدد. . أبيه وأمه. . وإخوته وأبنائهم. . هذا الجيش الصغير أين يجد لقمة العيش؟ أيذهبون إلى الوسايا والتراحيل، أم يشتغلون خُدماً فى المدن؟؟ وفكر عبد المعطى طويلاً. . ليس هناك من حل سوى أن يرسل برقية استنجد لأولى الأمر. .

لقد كتب ثلاث شكاوى فى الطيب . . والحاج على . . والمعلم حامد . . فلم لا يرسل شكوى رابعة . . لا من أجل منال . . ولكن من أجل المساكين الذين يهددهم الفقر والإفلاس والجوع والضياع . .

كانت المأساة فى قمتها، ولا حديث للناس غير الآفة الخطيرة التى أكلت محصول العام، والناس فوق المصاطب، وفى القاعات الخافتة الضوء، وفى المساجد والحقول الجرداء والأسواق، لا يتكلمون إلا عن «الدودة»، ووسط هذه الأعاصير المزعجة، دهمت القرية ذات مساء قوات من الشرطة، واختطفت الحاج على من بين أفراد أسرته للتحقيق معه فى المخالفات الخطيرة الموجهة إليه، ووقف الرجل وفى يديه الأغلال مذهولاً حائراً، ومن حوله تجمهر الناس فى فضول وتساؤل، وقبل أن يركب الحاج على عربة الشرطة نادى إخوته، وهمس فى آذانهم:

- لا ترحموا الجانى . . إن الذى فعل هذا هو المعلم حامد المليجى . . وأنا أعرف السبب.

وفى الليلة نفسها ذهل الناس وهم يرون منزل المعلم حامد وقد شبت فيه النيران والتهمت كل ما فيه، وما حدث للبيت حدث للمقهى المجاور للمستشفى، وقف المعلم بعين شاردة ينظر إلى النار الشرهة وهى تأكل عشه الحبيب، ويتصاعد

الدخان الأسود الغزير ليكون سحابة قائمة مقبضة فى سماء القرية المنكوبة، وغمغم المعلم وهو يصصر على أسنانه: - «ترى من الوغد الذى فعل ذلك؟»، فهز سمعه صوت رجل إلى جواره - «صح النوم... إخوة الحاج على هم الذين أشعلوا الحريق، حسب وصيته قبل أن يرحل الليلة... والقرية كلها تعرف ذلك...»، فعلها صديق العمر المجنون، ظن أن الصراع من أجل امرأة، والسباق للفوز بها قد دفع المعلم عن أن يشى به، تمامًا مثلما ظن الحاج الظن نفسه... تلاقت الشكوك، وتغيرت القلوب، وتحرك الحيوان الكامن فى نفس البشر... القرية تشرق، وألسنة اللهب تمتد من بيت المعلم إلى ثلاثة بيوت مجاورة، وصراخ النسوة يملأ الأفق ويزاحم الدخان الأسود، وألسنة النيران تضىء المكان، وترتعش على الوجوه الشاحبة الحزينة، والباشكاتب عبد المعطى يندس بين الجميع، ويتمتم «من أعمالكم سلط عليكم» ولم تكذ النيران تخمد، وينفض السامر، حتى انتحى المعلم وزوجته وأولاده جانبًا وقبعوا فى صمت وسكون حزين، وعيونهم تنظر إلى البيت المهدم والتراب الأسود يغطيه وينطبق بالبؤس والشقاء... وجلس يفكر... ماذا يفعل فى هذه الأسرة الصغيرة بعد أن احترق البيت والمقهى؟؟ وبماذا يعاقب صديقه الخائن الذى لم يكلف نفسه مؤونة التحرى الدقيق والبحث عن سبب الكارثة؟

ومن بعيد لمح المعلم أحد الخفراء يجرى ويلهث حتى اقترب منه، وقال:

- الحق يا معلم .. مباحث .. مخدرات ..

وانتفض المعلم كالمسوع، وسرعان ما وضع يده فى جيبيه، وأخرج ورقة فضية لمعت قليلاً فى الظلام، ثم قذف بها بعيداً .. هناك فوق الأطلال المحترقة فوق التراب الأسود، وما إن فعل ذلك حتى أحاطت به أضواء مربكة، صادرة من كشافات بدت وكأنها عيون تضحك فى سخرية، وفتشوا المعلم فلم يعثروا للمخدرات على أثر فى جيبيه، لكنهم طلبوا ملابسه للتحليل الكيماوى، وأخذوا يفتشون بدقة، وينبشون التراب الأسود الذى لم يبرد بعد، وحينما وجدوا قطعة حشيش على الأرض قال الضابط:

- لمن هذه؟؟

- لا أعرف ..

- كيف ..؟؟ لا أحد غيرك هنا ..

فاغتصب المعلم ابتسامة باهتة، وقال فى هدوء عجيب:

- هى تخص من حرق بيتى وشرّد أولادى بلا ذنب

جنيته .. يا حضرة الضابط .. الدنيا ليل .. ونوافذ كثيرة

وأسطح وأبواب تطل على هذا المكان . . ومن ساعة واحدة فقط كان هذا المكان يخصص بالناس لإطفاء الحريق . .

ونظر إليه الضابط فى ريبة ، وقال فى صوت جاف :

- هيا معنا . .

فالتفت المعلم إلى أم العز زوجته وهى متكورة تحت عباءة الظلام وإلى جوارها نام أطفالها على الرغم منهم بعد أن غلبهم النوم ، وشعر برغبة جارفة فى البكاء ، وقال وهو يمضى إلى عربة الشرطة :

- وصيتك الأولاد يا أم العز . .

فشيخته بعويل باكٍ طويل . . عالى النبرات يصدر من أعماقها المكلمة . .

وجلجل صوت المؤذن يدعو الناس لصلاة الفجر «يا مؤمنين . . الصلاة . . الصلاة خير من النوم لقد فاز بالرضوان من سمع النداء . . ولبى الدعاء . . سبحان من أمات الليل وأحيا النهار . . » ، وكانت العيون مؤرقة ولم تذق طعم النوم فى تلك الليلة الليلية . . وتحركت الأشباح المكدودة المتعبة عبر الأزقة والحوارى صوب المسجد فى تراخٍ وتعثر ، وكأنما المسجد مغنطيس يجذبهم إليه ، جذباً فى الميعاد كل يوم . . وعلى

وجوه الداخلين المكرويين علامات استفهام حائرة كالطلسم العسير، لا تعرف لها جواباً ولا تفسيراً..

ما سر ذلك البلاء الذى نزل بأقطانهم، وأتلف محاصيلهم؟؟
ما سر تلك الحرائق التى اشتعلت فجأة، ولفحت بلهيبها المظلوم والبرىء، وأكلت الأخضر واليابس؟ ما الذى وجه أنظار الشرطة إلى القرية، فوفدت دورياتهم إليها تبعاً وفى ليلة واحدة؟

من يصدق أن المعلم حامد المليجى والحاج على ينقلبان من صديقين حميمين إلى خصمين لدودين؟ وتضاربت الآراء، وأدلى كل بدلوه فى الدلاء، كل يفسر الأحداث حسب هواء وتفكيره، وكان صباح الجمعة صباحاً مرعباً كثيباً، ورجال الشرطة مبعثرون فى أنحاء شرشابة.. يتنسمون الأنباء، ويتصدون لأى اشتباك، ويضعون أيديهم على المناوئين والمشكوك فيهم، حتى يقطعوا دابر الحوادث، ويضعوا حداً للصدام المتوقع، والقلق الذى سكن القرية، ويخمدوا ذلك الصراع الناشب، الذى ما يرح يتقد فى الخفاء..



وارتجفت أوصال منال عندما قال لها الطبيب:

- أنت فى وضع حرج يا منال.. وضع لا تحسدن عليه
إطلاقاً؟؟

فقالت وقد شحب وجهها:

- كيف؟؟

- اسمك الآن على كل لسان فى القرية . . .

- أنا؟؟

- أجل . . لا تهربى من الواقع المر الأليم.

- إنهم ينهشون عرضى منذ أتيت هنا.

- لكن الأمر جد مختلف هذه المرة يا عزيزتى . . المعلم حامد فى السجن . . وبيته احترق . . عن آخره . . والحاج على هو الآخر مقبوض عليه رهن التحقيق . . والدماء توشك أن تجرى أنهاراً فى حارات القرية . . كل ذلك من أجلك.

فأجهشت منال بالبكاء، القرية من حولها تشتعل حقداً وثورة، والعيون الفضولية ترمقها عبر الأسلاك الشائكة المحيطة بالمستشفى فى شماتة وتحفز، الجو كله مشحون بالترقب والخوف، والنار التى لا تبقى ولا تذر، وربت الطبيب على كتفها بيد مرتعشة ثم قال فى حيرة:

- لم تبكين؟؟

- ما ذنبى . . ما ذنبى يا دكتور؟؟ هل أنا التى أحرقت وسجنت وأرسلت آفات المزروعات؟؟ هل حرضت أحداً على

أحد؟ إننى أضعف من أن أحرك ساكنًا، أو أشعل مثل هذه العواصف المجنونة.

فأطرق الطبيب برأسه فى أسف، وقال :

- ليس الذنب ذنبك لا شك فى ذلك . . لكن الفلاحين الآن لا يفكرون تفكيراً منطقياً سليماً، لقد أزعجتهم الكوارث المتتالية، وأطارت عقولهم، وهم يبحثون عن ضحية . . عن شىء يلصقون به أسباب البلاء النازل بهم، وفى الجو المكفهر لا يستقيم تفكير، ولا يصدق حكم، ولا يكبح جماح . . المأساة . . مأساة ظروف قاسية تتلظى بجحيمها . . مأساة عقول لم تنضج بعد، مأساة قمم بالية يجب أن يزال من فوقها تراب السنين الطويلة الممتلئة بالحيف والعذاب والارتباك . . القرية تخلق من جديد بعد أجيال ذاقت الهوان، والمدنية تزحف نحوها، وتفاعل عنيف مريع يحدث باختلاط القديم والجديد فيتصاعد الدخان والغازات والأبخرة السامة، ويتطاير الرذاذ . . وضحايا يصابون . . يحترقون . . الأيدي التى تبنى وتضع التفاعل قد تصاب بالجروح والحروق . . ونحن أيضاً لسنا معصومين من الخطأ . . لنقبل الوضع كما هو، وليفعل الله ما يشاء . .

وجففت منال دموعها، ثم رفعت رأسها فى تحدٍ وقالت :

- قبضوا على المعلم حامد . . إنه شىء مؤسف حقاً . . لكنه

تاجر مخدرات ، والجميع يعرفون ذلك فلا ذنب لى إذن ،
وقبضوا على الحاج على . . أمر محزن جداً . لكنه يخون ،
ويسرق أموال الجمعية التعاونية ، ويشير القلق والاضطرابات
برغم أنه شيخ بلد . . والناس لا يخفى عليهم تصرفاته . . فما
ذنبى إذن ؟

وأشعل الطبيب سيجارته ، ثم قال :

- من الأوفق أن تعتكفى فى حجرتك فى هذه الأوقات
العصية ، وسنتظر ما يحدث من أحداث . .

وهمت أن تجيب غير أن الكلمات توقفت لدى شفيتها ،
حينما رأت عربة سوداء تقف لدى باب المستشفى ، وأحد
الخبراء ينزل منها مهرولاً ، ويفسح الطريق ، ويدود الأطفال
بعيداً ، ووقفت منال ، ووقف الطبيب ، بينما تقدم نحوهم
رجال ثلاثة . . لجنة تحقيق ، تابعة للمنطقة الطبية ، ليحققوا مع
الطبيب فيما وجه إليه من اتهامات . .



وفى صلاة الجمعة ، ومن فوق منبر المسجد الكبير ، كان
الشيخ المداح يقف على المنصة ، ممسكاً بيده سيفاً خشبياً ، وهو
يصرخ فى المصلين بصوت ناغم ناثر : - «أيها الناس . . لقد
دخلت قريتنا أرواح شريرة . . ونزلت بها الشياطين فسرت

العدوى إليكم، وتركتم طريق الملة السمحاء، وسلكتم مسلك
الآثمين والأشقياء، فبدل الله أمنكم خوفاً، وغناكم فقراً،
ورضاكم سخطاً، وأنزل عليكم البلاء من فوقكم ومن بينكم
ومن تحت أرجلكم، فتلف الزرع، وجف الضرع، وشبت
الحرائق، وطمست الحقائق، وفتحت السجون أبوابها
للمعتدين، وحاق الضياع بالمذنبين، وتصارع الرجال من أجل
امرأة متبرجة، وطوتهم رغبات الجسد الساذجة.. فطوبى
للأتقياء.. طوبى للأصفياء.. أيها الناس اتقوا الله فقد كفى
ما كان.. اتقوا الله فقد مضى زمن العصيان.. اتقوا الله فحالنا
لا يرضى به إنسان..».

والناس من حوله يمصمصون بشفاههم ويحركون
رءوسهم في حسرة، وقشعريرة الخوف من الله تسرى في
أجسامهم والشيخ يتمتم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى
أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾
[الزمر: ٥٣].



وساد القرية هدوء عاصف، يوحى بالمطر والزوابع فى عز الربيع، والنار تتقد تحت التراب، وعلم الجميع أن الأرواح الشريرة التى تحدث عنها الشيخ المداح لم تكن سوى منال.. ومن معها من موظفين جدد، حملوا إلى القرية استهتارهم وتبجحهم، وأفسدوا الحاج على والمعلم حامد وغيرهما.

وابتسم الباشكا تب عبد المعطى فى مرارة وأخذ يردد: «أرواح شريرة» منال هى الروح الشريرة أليس هذا عجيباً؟؟ سامحك الله أيها الصوفى الجليل.. وجلس عبد المعطى فى حجرته الشحيحة الضوء يتألم ويتأوه، لقد انتكست حالته، وساءت صحته لدرجة تنذر بالخطر، وبطنه أخذ يتنفخ أكثر وأكثر.. إنها علامات الاستسقاء اللعين، وساقاه أيضاً تورمتا، وبين نوبات الألم الحادة تتراءى له صورة منال التعسة.. الجميلة.. المظلومة، التى ألصقوا بها كل إثم ونسبوا إليها كل كارثة.. حتى الدودة التى أكلت القطن.. كانت

بسببها . . لقد غضب الله عليهم بسببها . . فعاقبهم هذا العقاب الأليم ، وتمتم عبد المعطى : « لكنها ليست روحاً شريرة . . إنها ملاك طاهر غير أنها تعيش وسط الشياطين والذئاب . . وتلك الروح الشفافة . . والفم الرائق الحلو والعينان الفاتنتان . . والحديث العذب والكفاح من أجل إخوتها وأسرتها . . وسهرها من أجل المرضى والمتعبين . . كل هذه الأشياء لا تدل على أنها شيطانة . . يجب أن يفهم الجميع أنها لا تقل طهارة عن الآخرين . . لكن كيف؟؟ هذه هي المشكلة . .

لقد حاول عبد المعطى جاهداً أن ينفى عنها التهم الموجهة إليها، ويشئى على أخلاقها وسلوكها، ويبرز كل حسناتها . . لكنه كان فرداً فى مواجهة قرية بأسرها، لا يستطيع أن يقنع تلك العقول الجامدة الشرسة التى فقدت قطنها وأملها، وفقدت أيضاً السلام الذى كان يتشر رواقه على ربوع القرية كلها . . كان السؤال الذى يوقفه دائماً عند حده : «ما سبب الخلاف بين المعلم والحاج على؟؟ ومن الذى أوجد قلوبهما، وقذف بهما إلى السجن رهن التحقيق؟»، فإذا قال لهما : «ليست منال هي السبب . . إنهما يتناحran من أجل الفوز بها، وهى ترفض هذا وذاك» فلا يعدم أن يرد عليه رجل يقول : هذه اللعوب الفاجرة هى التى أرثت الحقد بينهما، وأشعلت نار المنافسة بدهائنها وخبيثها .

وذهب عبد المعطى لزيارة الطبيب بعد أن اشتدت آلامه، ولم يعد يستطيع النوم . . ودلف إلى المستشفى فرأى الوجوم ينتشر فى أفقها والطبيب يزاول عمله فى صمت مكتئب، ومنال تمشى مطرقة لا تنظر فى وجه أحد، ولا تكلم أى إنسان، وتؤدى ما يوكل إليها، وكأنها منعزلة تمام الانعزال عن الجو الذى حولها، فقدت الحماس والرغبة فى أثناء تلك العاصفة المقبضة، إنها تؤدى واجباً مفروضاً عليها فقط، وهالة زرقاء تحيط بعينها، وشحوب ظاهر يلقي خماراً على وجهها الفاتن . .

- صباح الخير يا ست منال .

قالها عبد المعطى وهو يسرع وراءها وقد لهثت أنفاسه، وازداد وجهه شحوباً، فأجابت دون أن تتوقف أو تكلف نفسها مؤونة النظر إليه :

- صباح النور . .

فلم يكف عن مطارقتها، بل حمل نفسه فوق ما تطيق، وأردف :

- أنا تعبان جداً يا ست منال . .

فسكتت ولم تجب، وواصلت سيرها، وكانت تتقل خطواتها فى قسوة، وتلطم الأرض بحذائها حانقة مغتظة، فقال عبد المعطى مرة أخرى :

- ألا تسمعينني؟؟ أكاد أموت من شدة الألم ..

فقلت هذه المرة في صبر نافذ:

- اذهب للدكتور ..

وكان قد فقد طاقته كلها، فارتمى على جانب الطريق متعباً يلهث وقلبه كحمامة طائرة، يرفرف بسرعة وضعف .. وكأنه يغالب الموت الذي يطارده، وعيناه الغائرتان تتبعانها في حزن .. حتى في أساها تبدو كأغنية العاشق الملتاعة .. كالهمسة الحلوة: «وأنا أكاد أموت يا منال .. من أجلك أتعذب .. لا يهمني النار التي في أحشائي تهيج مغصتي، بقدر ما يهمني رضاك .. أنا الذي تسببت في كل هذا .. لولا شكواي ضد الحاج وضد المعلم لما اشتعلت النيران، وذهب الناس إلى السجن، وبكى أطفال ونساء، ووقفت الحركة في القرية، أنت بريئة يا مسكينة .. وأنا أردت أن أريحك منهما .. لكني .. ماذا أقول؟ هل أسأت التصرف؟؟ كلهم لصوص يا منال .. الحاج والمعلم .. والطبيب أيضاً، يجب أن ينالوا عقابهم، والقرية كلها تعرف ذلك، وإن كانوا لم يجرءوا على الشهادة ضد أحد .. ليسوا جبناء ولا كذابين لكنهم يجاملون في حماقة .. يجاملون حتى الذئاب والشياطين .. ما كنت أظن أن العبد كله سوف يقع فوق رأسك الجميل

كله . . دفعة واحدة، وأنا أحبك يا منال . . أحبك بكل روحي
وكياني . . ولن أكون وفيًا مخلصًا إلا إذا نقلت العباء فوق
رأسي أنا . . إلا إذا أعلنت الحقيقة الناصعة وهي أنني صاحب
الشكاوي كلها . . فلا أعمل في وضع النهار، وأترك تدبير
الظلام، ولأقبل الأذى والموت لو جاء -بصدر
رحب، امرأة -كمنال- تواجه العاصفة التي أثرتها أنا، وأبقى
خائفًا منكمشًا؟؟؟ يا للعار!!

وبينما كان عبد المعطي يرقد على جانب الطريق يناجي
نفسه، سمع صوت الطبيب:

- لماذا ترقد هكذا؟؟

- الحال ساءت يا دكتور . .

- أعرف . . القرية كلها أعلنت الحرب .

- لا أقصد ذلك . . لقد ساءت بالنسبة لي . .

- كلنا في وضع تعس . . هيا . . قم لأعيد فحصك، إنك
تبدو متعبًا بصورة لا تسر .

لم يجزع عبد المعطي كثيرًا حينما علم أن كبده في حالة غير
مُرضية، وأنه قد أوْشك على أن يتوقف عن إفرازاته تمامًا،
وعلامات التسمم قد أصبحت جلية في نتائج التحاليل التي
أجرها الطبيب، بالكشف الظاهري عليه، وتتم عبد المعطي:

- سمعت يا دكتور أن الطحال إذا تلف يستأصلونه بعملية جراحية .

فقال الطبيب في يأس :

- لكن ليس هناك شيء اسمه استئصال الكبد .

- معنى ذلك أنني سأموت . .

فالتفت إليه الطبيب في اهتمام ، وقال :

- من قال ذلك؟؟

- هذا ما فهمته من كلامك .

- لا أعني ذلك بالضبط . . لكن الكبد قد يستأنف نشاطه وتتجدد خلاياه في أى وقت ، نحن بدورنا قد أعددنا لك الدواء اللازم والرعاية الطبية الكافية .

كانت حالته في مرحلة خطيرة ، لكنه لم يكن يفكر جدياً في الموت ، وإن كان قد تردد على لسانه ، كان واثقاً أنه سيعيش ، الموت والحياة بيد الله ، سواء توقف الكبد ، أو لم يتوقف ، وروحه لم تزل متعشة وتتشوق إلى الحياة والحب والأمل ، ومنال لم تزل بالقرب منه ، تعد له الدواء وتحقنه بالعقاقير المقوية ، وتزوده بنظراتها الحزينة ، ويلبساتها التي تحمل الدم بتجدد ويجري في عروقه ، فينسى آلامه ومصيره التعس ، وأمسك بيدها في ساعة متأخرة من الليل ، وقال :

- منال . . فنظرت إليه دون أن ترد بينما استطرد:

- أنت فتاة طاهرة .

- الشياطين لا تعرف الطهر ، والأرواح الشريرة وباء . . ألم

يقول أهل قربتكم ذلك . .

- أنا واحد منهم يا منال . . ولا أقول هذا .

- لأنك متعب . . مريض .

- منال . .

- ماذا تريد . . . اختصر . . .

- لا تكوني قاسية هكذا . . لقد وجدت الحل الذي يرد

إليك اعتبارك ، ويرغم الجميع على الانحناء لك احتراماً . . .

إنك مظلومة . . . وأنا السبب . .

ظننت منال أنه قد بدأ يهذي ، فمرضى الكبد في مراحل

حياتهم الأخيرة غالباً ما يتكلمون كالمجانين ويتصرفون

تصرفات نائية ، لكنها مع ذلك وجدت في عينيه صدقاً وعلى

وجهه علامات الجدد . . تعابير وجهه لم يزل يحتفظ صاحبه

بكل قواه ، ويعي ما يقول ، ولذا قالت :

- أنت ؟ . . كيف ؟؟

- أردت أن أحطم أعداءك بطريقتي الخاصة . .

- ماذا تقصد؟ ..

- أشعلت النار .. وذهبت بهم إلى السجن .. وأقمت الدنيا وأقعدتها ..

- إنك متعب ..

فتحامل عبد المعطى على ساعديه الهزيلين، واضطجع نصف اضطجاعة، وقال فى نبرة جادة:

- خطبك الحاج .. فشكوته إلى الإدارة، وفتشت عن مخالفاته .. وقذفت به إلى السجن .. وأحبك المعلم، وحاول الزواج منك، فشكوته إلى مباحث المخدرات كى أريحك منه وأريح البلد من سمومه، ثم .. ثم الطبيب، ألم يحاول أن يكون ذنباً معك ذات مرة؟ هو الآخر شكوته إلى المنطقة الطبية ..

وذهلت منال وهى تستمع إلى كلماته، ونظرت إليه فى استغراب واهتمام، فقال:

- ألا ترين أنى الأقوى، وإن كنت أكاد أموت على فراش المرض؟ لقد تصرفت بطريقتى الخاصة .. لا سلاح لى غير أقلامى وأوراقى، هكذا ترين أنهم ذهبوا جميعاً .. وبقيت أنا .. ذهبوا رغم عصبيتهم ومالههم وقوتهم .. ألا ترين أننى أحمل قنبلة .. قنبلة ذرية من نوع مضحك؟ لكن هذه الحقائق

لن تعيش بعد هذه اللحظة في الظلام . . سوف أنشرها غداً على الناس . . فلأضع السطر الأخير من المأساة في الضوء . . ولأكتبه بشجاعة وعلى ملأ من الناس ، لأبرئ ساحتك . . ولتعلمى أن قوتي ليست مجردة من الأخلاقيات . . بقوة رجل شجاع يمسك بالقلم والورق . .

أى رجل عجيب ذلك الذى يرقد أمامها فوق سرير المرض !! هذا كل الهيكل الناحل الشاحب ذو العين الواحدة والأنفاس اللاهثة واليد المرتعشة المعروفة ، يبدو كأنه لغز كبير . . سر غامض تافه ، وخطير فى الوقت نفسه ، أليس عجيباً أن يثير هذه العاصفة كلها ، ويملا القرية ضجيجاً وعلامات استفهام ويشحنها بالخسائر والقلق والبغضاء؟؟

- أنت خصم عنيد . .

- وأشد منى عناداً يا منال هو ذاك الداء الذى أقعدنى ، وهذا قواى . . هذا العدو الراقد فى أحشائى لم تنفع معه أوراقى وأقلامى كان الداء أقوى منى . . بل أقوى منا جميعاً ، قد أبدو بالنسبة لك لغزاً كبيراً . . لكنك ستفهمين كل الطلاسم والرموز . . وأبدو أمامك إنساناً بسيطاً ضائعاً . . لو نظرت إلى نظرة منصفة . . لو تحسست هذا القلب الذى ينطوى على حب كبير . . لك أنت . . إننى مريض محتضر . . لكن قلبى

جبار . . هل تموت القلوب أيضاً يا منال؟؟ ولم لا . . إنها من لحم ودم . . آه كم أحس بالتعب .

ولم تدر منال بماذا تجيب، كانت فى دوامة نائرة عاصفة، فتمتت وهى تخرج:

- تصبح على خير . .

- وأنت من أهله . . آه . .

وعلى فراش المرضى سمع عبد المعطى أنباء هزته هزاً عنيفاً، المعلم حامد يفرج بضممان مالى، والحاج على يخرج أيضاً ويعود إلى القرية لكنه موقوف عن العمل بمشيخة البلد لفترة قد تطول وقد تقصر، والطبيب خصم منه خمسة عشر يوماً، وينقل إلى مستشفى العياط قرب الجيزة، ومنال تنقل إلى مستشفى أم المصريين بالجيزة . . قريباً منه . . لكن رائحة السلام لم ينتشر أريجها بعد فى أفق القرية . . فالشكوك قائمة، والعداوات لم تزل تتقد فى النفوس . . غير أن المعلم حامد قد أقسم على المصحف الشريف أنه لن يعود لتجارة المخدرات . . إن أياماً قصيرة فى السجن . . قد علمته أن مال الدنيا كلها لا يساوى سواد ليلة فى السجن أو الذل الذى ركبته، وبعده عن أولاده شئ رهيب . . والمقهى والناس والضجيج والقرية كلها أشياء لو تركها لكان الموت أروح له . .

ويبقى على عبد المعطى أن يقول كلمته على ملا من الناس،
لتهداً النفوس وتعود المياه إلى مجاريها ويفوح عبير السلام . .
وقد قالها عبد المعطى . .

وأثارت من الضجة أكثر مما أثارت الأحداث الرهيبة
نفسها . . وتتم عبد المعطى : «تستطيعون أن تمزقوني . . افعلوا
ما شئتم ، هذا هو الذى حدث . . » .

وتشجعت أصابع المعلم ، وانطلق الشرر من عيني الحاج
على ، وأصر الطبيب على أسنانه من الغيظ ، لكن عبد المعطى
يرقد شاحباً كثيباً ، هيكلاً فارغاً من الأمل والحياة . . لا ينظر
إليهم ، عيناه تتركزان فى وجه منال التى تقف بينهما والدوامه
العاصفة لم تزل تشتت ذهنها المتعب المكدود الذى لم يصح
بعد من أثر الصدمة ، ومن آن لآخر يهمس فى صوت حزين
غير مسموع تماماً :

- أحقاً ستسافرين إلى الأبد يا منال . . ولا نراك . . ؟

وكلما فكر أن منال سوف تسافر ولن تعود ، وتغيب عنه
صورتها المحببة ، وعبيرها الذى يثير شوقه وحنينه ، يهمس :
- لكأنى أرى مائى وأشيع جنازتى قبل أن أموت . .



ابتسم عبد المعطى ابتسامه شاحبة وهرير قد فى حجرتة
المختصرة الضوء بعد أن انتقل إلى منزله حين ساءت صحته ،
وكان رغم ألمه وحزنه يشعر بشيء من الارتياح إذ إنه سمع أن
أولى الأمر قد اهتموا بشكواه التى تتعلق بأفة القطن ، ورصدوا
التعويضات اللازمة للفلاحين ، وبدلوا مسجودات كبرى
للمحافظة على ما بقى من المناطق التى لم يقطع زرعها ، ووجد
من الفلاحين من يقول فى إخلاص : « شفاك الله يا عبد المعطى
دائماً عون لنا فى الأزمان .. » .

ودخلت أمه ووجدت الابتسامة الشاحبة ترتعش فوق ثغرة
الجاف ، فقالت :

- لعلك أحسن حالاً يا ولدى ..

- الحمد لله ..

- هاك أرنباً لذيذاً .. لقد أجدت لك طهيهِ ..

فالتفت إليها عبد المعطى ، وأجال النظر بين الأطباق
العامرة ، والقلة الممتلئة بالماء البارد ثم قال فى حسرة :

- فقدت كل رغبة فى الطعام . . أريد ماء فقط . .

- لكنك لم تذق شيئاً سوى الماء من يومين . .

- أمر الله يا أمى . . ثم لا تنسى أن الطبيب قد حرم علىَّ
مثل هذا الطعام . .

فأرخت الأم أهدابها ، واختلجت دمعة فى عينيها ثم
قالت :

- الطبيب ربنا يا ولدى . . إنك تحرم نفسك من كل شيء ،
ومع ذلك فحالتك لا تسر . . كل هذا الأرنب . . وستشعر أن
حالتك أحسن . . كل من أجلى يا ولدى . .

- لا فائدة . .

ثم ترنم فى صوت جريح متقطع حزين النبرات :

من فوق شواشى باسمع ندا بالليل

عشق البنات البكارى هد منى الحيل

فاغتصبت أمة ابتسامة لا تقل شحوباً عن ابتسامته ،

وقالت :

- قل يا صحة . . الصحة أهم شيء يا ولدى . . وعندما

تشفى إن شاء الله سوف أزوجك بنت أسياد البلد . . نذر على
والنذر أمانة .

فضحك عبد المعطى ضحكة قصيرة، وقال :

- زواج؟؟ إنك حسنة النية لدرجة كبيرة يا أمى . . لم يبق
إلا القليل وتنتهى الرحلة الشاقة التعسة ، لا شفاء يا أمى . . كل
ما أرجوه من الله هو حسن الختام . . سأموت حتماً . . هذا ما
أشعر به ، وسيقول بعض الناس عنى : كان الباشكاتب عبد
المعطى متعباً مثيراً للمشاكل فليرحمه الله . . وسيقول
غيرهم . . مسكين كان طيباً . . ومنال لست أدري ماذا
ستقول . . إنها غير الناس جميعاً . .

ثم ترنم عبد المعطى من جديد بنبراته الحزينة الجريحة .

فى باطنى جرح سناشر هلال ما طاب

وكل ما طببه تفرنك الأطباء

جابه حكيى على بغلة عشارية ورد الباب

كشف الحكيم وتمنع بعيد عنى

قال عيطوا يا رفاقه . . دا قليل إن طاب

فلم تستطع أنه أن تمنع نفسها من البكاء والإجهاش بصوت
عال ، ثم تحول بكاؤها إلى أنين بلغ مسامع كل من بالببيت ،
فتزأحموا نحو باب الحجرة فى خوف وذعر ، وعبد المعطى

راقد بينهم هيكلاً محطماً وعصاه الأنيقة إلى جواره، وجلبابه الصوفى معلق على الحائط، والعيون الخائفة تحاصره من كل جانب، وأبوه يزم شفتيه يمنع عواطفه من أن تنطلق فى بكاء حار، وتتم عبد المعطى:

- إنى أختنق. قليلاً من الهواء ..

العرق البارد يغمر جبهته، وصدره يعلو ويهبط، وعيناه تدوران فى محجريهما كمن يوشك أن يفقد وعيه، ثم يغمضهما للحظات لا يدرى أطالت أم قصرت، وسرعان ما يفتحهما ويجول بهما بين عائديه، وفى رأسه تطن تلك العبارة المبكية التى ترغم بها من دقائق .. «عيطوا يا رفاقه، داقليل إن طاب»، لكنه لا يريد أن يرى سوى دموعها هى .. منال .. لكن هل تبكى حقيقة من أجله ولم تبكى؟ كثيرون يموتون أمامها فى المستشفى ومن قبل فى القصر العينى، ولو بكت على كل راحل، لكانت أيامها كلها بكاء وعويلاً وندباً .. لا .. لا .. مهمتها أن تصارع الداء، وتقف فى صف المريض لينتصر على الموت .. ومهمة غيرها البكاء إذا ما حل القضاء، وخرج النفس الأخير .. لو بكى القواد والجنود على كل شهيد فى أرض المعركة لتوقف كل شيء .. إنه جنون لكن .. لكنى إنسان آخر غير الذين ماتوا بين ذراعيها .. أجل .. ليتها تعرف ذلك ..

وفى المستشفى كانت منال تجلس مع الطبيب، والحجرة قد خلت تماماً من طالبي الفحص الطبى، وسكون يشمل المكان، ومقهى المعلم حامد المليجى كالعهد به عامر بالرواد، وقطع الطاولة وكركرة الجوزة وصوت النادل وقهقهات الزبائن كلها تصل كالطين الخافت إلى سمع منال والطبيب، وتتم الطبيب فى شىء من عدم الرضى:

- هل أعددت كل شىء..؟

فقالت منال باقتضاب:

- أجل..

- سترحل غداً.

- مفهوم..

وتذكرت منال أول يوم قدمت فيه إلى شرشابة، والسيارة وسائقها والحديث الذى دار بينهما عن القرية، والأطفال الذين يقطعون الطريق أمام العربة، والخفير الذى يرفع يده بالتحية والعيون التى رمقتها بإعجاب ممزوج بالاحترام، والتعليقات التى كانت تلاحقها، والمقهى.. والمعلم حامد.. آه.. ما أشد ما كانت تخاف نظراته التى تصرخ فيها الشهوة وينبثق منها الوعيد والتهديد.. والحاج على ذلك الرجل الصامت الثابت لا يتحرك كالجلبل الشامخ.. يرمقها من بعيد.. ويشتهيها بكل

كيانه . . لكنه ذو كبرياء . . ويخطط فى ذهنه أشياء وتصرفاته
عجيبة . . أخوه حكمدار . . ثم الباشكاتب عبد المعطى . . يا له
من مسكين، كان عندما دخلت القرية أهم إنسان فى شرشابة
على حد تعبير الدكتور، رجل أصفر البشرة يشرع قلمه فى
وجه مخالفيه والذين يحكم عليهم بالمروق والطغيان . .
وتذكرته وهو يعترف لها بحبه . . ثلاثة الأثافى . . ثم العاصفة
الكبرى التى أشعل نارها، فأقام الدنيا وأقعدها هيه . . لم
يكذب حينما قال أنه أقوى الجميع فى القرية وأن قلبه ذهبى . .
إن حبه لى كبير . . فوق التصور . . فوق المنفعة . . يا لها من
ليال عجيبة تلك التى قضتها فى هذه القرية المثيرة . . كانت
كحلْم طويل ملئء بالمفاجآت والمفارقات . .

وقال الطبيب قاطعاً عليها أحلامها :

- لا شك أنك سعيدة بانتقالك قرب الأسرة . .

فتهدت منال، وقالت :

- فقدت الحماس بالنسبة لكل شيء . . لم أعد أعرف
سوى أن أعمل . . أعمل فقط . .

- ليس ما تقولينه حقاً . . لا شك أنك ستستريحين، فسوف
تودعين المتاعب هنا، وتعيشين إلى جوار أمك هناك . .

- هذا ما يبدو فى ظاهر الأمر . . لكنى أحس فى أعماقى
بألم . . بقلق غامض لا يحويه مجرد الانتقال أأست معى فى
أن المتاعب سوف تبقى ملازمة للإنسان كظله؟ إنها شىء من
وجوده . . من طبيعة علاقته مع أفراد مجتمعه . .

فانطلق الطبيب يقول :

- إنها تعبير عن الصراع . . عن التفاعل . . هذا هو الحق . .
لكنى أفهم معنى القلق الغامض الذى تشيرين إليه . .

- ماذا تعنى؟؟

- أعنى أن قلقك الغامض هذا ليس غامضاً بالنسبة لى على
الأقل .

- لست أدرى ما تهدف إليه . .

- أستطيع أن أقول أن مشكلتك الكبرى الآن هى مشكلة
الزواج . .

فأالت منفعلة :

- ليس هذا صحيحاً . .

- كلا يا عزيزتى . .

- لقد جانبك الصواب فيما تقول، أأنت تظن أن أمثال
المعلم والباشكاتب قد سيطروا تماماً على مجرى تفكيرى؟ . .

من الصعب أن يصدق الإنسان أنى أستطيع الزواج من أحدهم . . ليست هذه التربة الصالحة لى . . إننى أختنق فى مثل هذه البيئة . . أنا لا أنفر من الفلاحين أو أحتقرهم لكن زواجى من أحدهم مخالف لطبائع الأشياء . .

فابتسم الطبيب فى مكر، وقال :

- دعينا من كل ذلك . . إن مشكلتك هى الزواج . . لقد كان هؤلاء الثلاثة هم ناقوس الخطر الذى أيقظك على الحقيقة المرة . . أنت تجربة جديدة . . لقد تعود مجتمعنا أن يحمل الرجل العبء . . لكنك اليوم تحملين عبء إخوتك وأمك كما يفعل الرجل . . أنت خليفة أبيك . . لكن إلى متى تبقين هكذا؟ إن أمام إخوتك سنوات طويلة حتى يصيروا رجالاً يعتمد عليهم . . فهل تظل تضحياتك مستمرة حتى يفوتك القطار؟؟ إن الزواج مع هذه الأوضاع أمر بعيد التحقيق بالنسبة لرأى على الأقل . . هه . . ماذا قلت؟؟

فقالت منال بعصية :

- يجب ألا أفكر فى ذلك الآن . .

- لكنك تفكرين رغمك أنفك . . إنك تهربين فى ظاهر الأمر لكن عقلك الباطن يتحرك . . يناقش الأمر فى وقاحة دون أن تشعرى ، ثم تتحدثين بعد ذلك عن القلق الغامض . . والألم الذى يحز فى نفسك . .

وهزت كلماته أوتار نفسها، وأيقظت فى داخلها أشياء كانت على وشك أن تنام، لقد فكرت فى الأمر قبل ذلك، وأيقنت أن الإنسان لا يحيا لنفسه فقط، عليه ضريبة يجب أن يؤديها، تضحية لا بد منها، أمها وإخوتها جزء منها، وليس المعقول أن تترك إخوتها ليعيشوا فى الملاجئ، ولا أمها كى تسعى بين البيوت - فى هذه السن - لتغسل الملابس، أو تستجدى الهيئات الاجتماعية، وتذكرت الحاج على وهو يعرض على أمها أمواله واستعداده التام للتكفل بالأسرة كلها. . هل كان صادقاً فيما قال؟؟ إن الأمر جد عويص ولا أخرج منه إلا بمعجزة. .

وقال الطبيب:

- لطالما سألت نفسى هل يستطيع الإنسان أن يحمل عبء التضحية إلى الأبد وينسى ذاته تماماً. .

- ولمَ لا يا دكتور؟

- لأنه فوق الطاقة. . إنه طريق شائك. . نهايته التمرد. .
نكسة خطيرة يصاب بها عندما يتلف وتينظر خلفه فىرى عمراً طويلاً قد انصرم، وينظر أمامه فىرى المستقبل لا يختلف كثيراً عن الماضى. . وهنا يتمرد، وسيطر عليه الملل. .

- والحل فى رأيك؟؟

- الحل .. الحل هو أن .. أن تتزوجيني أنا.

وصرخت منال فى دهشة :

- أنت الآخر؟؟ .

فابتسم قائلاً :

- أجل .. أعترف أن فيك شيئاً ما .. يجعلك قريبة إلى

نفسى كما كنت قريبة إلى نفوس الآخرين .

فأخذت منال الأمر على أنه مجرد دعابة ، وقالت :

- لكن المشكلة الأساسية لن تحل أيضاً .

- أعترف بذلك ، لكن لتتزوج أولاً .. ثم نبحث عن

حل ..

- هذا جنون ..

- لا أعتقد .. عندما نفرق فى المشكلة ، ونكتوى بنارها إما

أن نجد مخرجاً ..

- وإذا قتلنا ..

- نتصر عليها بالحب .. أنا من عشاق المغامرات ..

ونظرت منال إلى الطبيب فى دهشة ، النظارة الزجاجية

ذات الأحجار البيضاء تبدو فوق عينيه صافية ، تشف عن

أهدابه وعن الإشعاعات المشرقة التى تنبثق من هناك ، ووجهه

الممتلئ الخلق يوحى بالبساطة والسذاجة والسخرية والأمل ،
إنه صنف من الرجال كل ما نظرت إليه تحس أنه يمضى ولا
يبالى .. يفعل ما يحلو له دون أن يفكر كثيراً فى العواقب ..

- وغداً نسافر يا عزيزتى .. ويأتى هنا غيرنا .. حكيمة
جديدة .. وطبيب جديد .. ويبقى المستشفى كما هو ..
ومقهى المعلم حامد لن يتزحزح .. وتبدأ القصة من جديد ..
من حيث انتهينا نحن .. الحياة لا تقف ، والمشاكل لا تموت
أبداً .. قد تكون الحكيمة الجديدة قبيحة الشكل ، وقد يكون
الطبيب الجديد أكثر مثالية منى .. لكن ليس معنى ذلك أن
تمضى الحياة فى هذه القرية هادئة .. كالريح الرخية ..
فالتفاعل لم يزل مستمراً .. والرذاذ يتطاير ، والأبخرة السامة
وغير السامة تغمر الأفق ، والقروح تصيب الأيدي التى تصنع
التفاعل .. وسنكون نحن آنذاك فى الجيزة .. نصنع تفاعلاً من
نوع حديد .. وننجب أطفالاً .. ينضمون إلى رهط إخوتك
الصغار .. وهكذا تنمو الكتيبة الصغيرة .. والقافلة تسير ..
والتفاعل الصاحب يستمر ..

وضحكت منال .. ضحكت فى إشراق وسعادة هذه
المرّة .. وحينما شعرت بساعد الطبيب يلتف حول خصرها
النحيل ، سرى تيار مرعش فى جسدها فملأه بالحدرد اللذيد ،
فتمنعت قليلاً ، وقالت :

- لكن ..

فقال وهو يهوى على وجهها بأنفاسه اللاهثة ..

- لكن ماذا؟ الرجال لا يستطيعون الصبر طويلاً .. إن التفاعل الذى نتحدث عنه يحتاج إلى أيد ناعمة طرية تمسح على القروح ، وتداوى الأيدي القوية الجريحة التى تصنعه ..
أليس كذلك يا حبيبتي؟

وسكنت منال فى رضى ، وآثرت ألا تقاوم .. فقد كانت العاصفة هذه المرة أعنف من أن تقف فى طريقها .. والجو من حولها مشحون بأنغام عذبة شجية .. فاستسلمت لعالمها الرائع المسحور ولم تكن تفكر آنذاك إلا فى تلك اللحظات الحلوة ..
السعيدة ..



منذ الصباح الباكر، ومنال تستعد للرحيل، وتملأ
حقائبها، وتودع المستشفى والمرضى وموظفى الوحدة
المجمعة . . موظف المعمل والإحصائى الاجتماعى،
والمدرسين، وأماكن الذكريات الحلوة والقاسية على السواء
كانت فى حالة نفسية طيبة، راضية تمام الرضى عن الاتفاق
الآخر الذى تم بينها وبين الطبيب، ذلك الاتفاق الذى بقى
طى الكتمان ولم يعلم به أحد من أهالى قرية شرشابة،
وأكملت على الفور زيتها، ولحقت بالطبيب فى الكشك،
كان هو الآخر فى قمة انبساطه وانشراحه، يستقبل المرحلة
الجديدة من حياته باطمئنان وثقة .

وجاءت العربة التى سوف تقلهما، وسرى النبا إلى القرية،
فوفد خلق كثير لتوديع الراحلين، كانت عواطفهم الريفية
الصادقة تتدفق فى عيونهم وفى كلماتهم «لن ننسى أيامكم
الحلوة . . ربنا معاك يا دكتور . . ربنا يعد لها لك يا ست منال

ويرزقك المراتب العالية المسامح كريم . . ربما نكون قد تسببنا
لكما فى بعض المتاعب . . لكن كله خير . . .

وكانت هذه الكلمات البسيطة المعبرة تمسح الكثير من
آلامها، وتدفن إلى الأبد تلك الأحقاد الصغيرة، وتعفى على
آثار المشاكل كل التى خلقتها الظروف خلقاً، وبين ضوضاء
الوداع والدعوات الحارة والتحسر على الفراق، صافح الطبيب
ومنال عشرات الأيدي الخشنة فى حرارة وانفعال، وتمت
منال وهى تغالب انفعالها :

- برغم ما حدث . . فأنتم ناس كرماء . . طيبون . .

وانطلق صوت مريض، عبر نافذة الدور الأعلى فى عنبر
المرضى مع السلامة . . مع السلامة يا دكتور . . مع السلامة يا
ست منال . .

وساد المودعين صمت تام، وحملت الأعين إلى أعلى نحو
الصوت الخشن الممتلئ الذى يحاول التغلب على مظاهر
الضعف والمرض، ونظروا إلى اليد الممتدة من خلال القضبان
وكانها قد تشنجت وهى تلوح بالوداع، ومن خلفها قد
تراحمت وجوه كثيرة . . شاحبة ترسل نظرات المحبة
والاعترافات بالجميل، كان الرجل يتكلم عبر النافذة العليا
وكانه يصرخ من فوق منبر عال فى حفلة تكريم غير متوقعة . .

وسمع نفير الغربة . . وهمّ الراحلان بالانصراف ، لكن معاون
صحة القرية شق الطريق وسط المتزاحمين وهو يلهث من شدة
التعب ، ويقول :

- الحمد لله . . لقد لحقت بك يا دكتور قبل أن ترحل . .
كرامة الميت دفنه . . البقية فى حياتك . . مات الباشكاتب عبد
المعطى ونريد شهادة وفاة . .

لا حول ولا قوة إلا بالله . . كانت هى عبارة الخالدة التى
تمتت بها شفاه الحاضرين وقد ران عليهم جلال الموت ،
وشملتهم رهبتة ، وبينما كان الطبيب يتجه إلى مكتبه لعمل
اللازم ، والناس يتحدثون عن عبد المعطى وماضيه الطيب . .
الملئ بالكفاح . . وخدمة الناس ويشنون على أخلاقه وصبره ،
وجهاده من أجل بناء المستشفى ، والوقوف فى وجه ظلم
العمدة والمشايخ وأصحاب الجاه . . بينما كان كل ذلك يدور
كانت منال تذوق دموعها حارة متدفقة لا تستطيع لها حبسًا . .
والمنديل الأبيض فى يدها قد تبلل تمامًا ، وصورة رجل
شاحب . . حزين ينظر إليها فى حب وحنان وتضحية تتراءى
لها فى خاليها . . صورة رجل مريض مسكين . . أحبها كما لم
يحبها أحد من قبل . . وفعل الكثير من أجلها . .

وتمتم الطبيب دون اكتراث :

- ما هذا يا منال ؟ إنك تبكين فى حرارة . .

فقالت من بين دموعها وشهقاتها :

- هذا الضعيف الضائع الذى مات . . كم كان نبيلًا . . إنه نوع فريد من البشر تجد نفسك مرغمًا على حبه والاحتفاظ بذكراه . . صور كثيرة فى شرشابة سوف أنساها . . أما هذا الرجل فلن ينسى . . نموذج حى فى قلبى لا يموت أبدًا . .

فضحك الطبيب ضحكة مقتضبة ، وقال :

- بدأت أغار من المرحوم عبد المعطى . .

وبرغم الدموع فقد ابتسمت منال ابتسامة باهتة تنطق بالحزن العميق ، ثم أخذت تجفف دموعها كى تتخذ سمتها الهادئ الرزين ، والناس المتجمهرون فى الخارج يغمغمون :

- يا لها من إنسانة نبيلة طيبة . . خسارة كبرى . . الله يجازى أولاد الحرام . .



وارتفع نفير العربية متقطعاً قوى النبرات ، وكأنه صفارة إنذار ، وتحركت العربية بالطبيب ومنال فى ببطء ، وعشرات الأيدي تلوح فى ذهول ، ومئات الكلمات تضيع فى خضم الوداع الصاخب ، وعيون مبتلة تحاصر العربية ، وتتزاحم نظراتها إلى حيث يجلس الطبيب ومنال ، وهرولوا خلف

العربة وهى تنطق ناحية جسر الترعة التى تمر أمام المستشفى ، ولما حاذت العربة مقهى المعلم حامد المليجى نظرت منال . . كان الحاج على يقف كالتمثال الجامد المرصود وعيناه مصوبتان إلى العربة . . وكان المعلم حامد المليجى يقف هو الآخر يصير على أسنانه إلى جواره وقد انكسرت حدة القوة والشهوة فى عينيه . . نظرات ذليلة كثيبة . . وبحركة لا إرادية مدت منال رأسها ناحية اليمين وأخرجت ذراعها ملوحة لهما ولمن فى المقهى ، وهى تقول بصوت مبجوح : « السلام عليكم خلناكم بعافية . . » . . كذلك فعل الطبيب . .

وتحرك التمثال الصامت . . الحاج على . . واندفع معه المعلم حامد ناحية العربة . . وصافحا الطبيب ومنال فى ود عميق . . وكان لم يحدث شئ . . كانت قلوبهم تتعانق ، وأطل من العيون بريق صاف نبيل بريق بدد ما شاب الذكريات من ظلام وآلام . .

- مع ألف سلامة . .

وانطلقت العربة بعد أن عبرت الجسر فى الطريق إلى القاهرة . . والمعلم والحاج قد عادا إلى مكانهما فى المقهى ، وحاول كل منهما أن يمسخ خفية دمعة سقطت على الرغم منهما . .

والأطفال الصغار يملئون الشارع بالضجيج ويسابقون العرب، والبط والأوز والماعز تتفرق في ذعر كلما مرت بها العرب، والبيوت المتواضعة ينطلق منها الدخان، ويتحرك فيها نساء يلبسن الثياب السوداء الضافية . . وفي أطراف القرية بدت أشجار النخيل والمزارع الخضراء وهى بالقرية وكأنها شال أخضر جميل . . والعربة تسرع فى المسير ومذياع يترنم بأغنيات حلوة شجية . . لكن منال لا تكاد تعى منها شيئاً، والطبيب يبتسم فى سعادة وثقة، ويده تتسلل خلف خصرها مداعبة، وتبتسم منال هى الأخرى .

ومن خلف العربة ذيل طويل من الغبار المثار .

تمت

نجيب الكيلانى



جولتہ فی «الربيع العاصف»

دراستہ نقدیۃ بقلم

محمد حسن عبد اللہ

ليست هذه الكلمة تقديمًا لقصة «الدكتور نجيب»، ولا
تقريبًا له . . .

فالمقدمة مكانها صدر الكتاب، ومن أهم شرائطها أن يكون
صاحبها أكثر شهرة، وتمكنًا في الفن من مؤلف القصة . .
وأنت تسلم معي أن ذلك كله غير متحقق والحمد لله .

كما أن هذه الكلمة ليست تقريبًا للقصة، ولا مدحًا
للصديق الطبيب الأديب؛ لأنه في غنى عن كل ذلك، وأنت -
أيها القارئ- لا تخدع، كما أننا نثق في ذكائك، ونسلم بأن
المدح أو الذم لن يحولك عن رأى كونته في هذا العمل .

وإذا كان النقد في أسلم مفاهيمه عملية تفسير لأثر الفنان
المبدع، وتوكيد لأواصر الصداقة بين القارئ والعمل الذى
يقرؤه؛ فإننى لن أكون ناقدًا؛ ولكنى قارئ فحسب، يحاول أن
يسيطر انطباعاته دون أن تستبعده فكرة سابقة، أو يدور فى
محور من محاور المدارس أو المذاهب النقدية المتعارضة .



وعندما تلتقى بالصفحة الأخيرة من هذا الكتاب سيظالعك
فيها ثبت بأسماء مؤلفات أديبنا - الذى هو موضوع تأمرى فى
هذه الكلمات - وهى فى كثرتها، وتعدد ألوانها، وما نالت من

جوائز تدل على رسوخ القدم فى ميدانى البحث والإبداع، لا تدل على مدى تمكنه من فنه فحسب، بل تدل على أمرين آخرين أحسبهما فى غاية الأهمية، أولهما: أنه لا يعتمد فى ثقافته الأدبية على معرفة عامة سطحية، بل يكاد يدرس فنون الأدب دراسة منهجية عميقة، وثانيهما: أن هذه الدراسة ليست مهوشة ولا متضاربة؛ بل يجمعها تنظيم دقيق مصدره وعى هذا الفنان، ومثله العليا، وإيمانه بمعنى الكلمة الشريفة، وبقيمتها، ويجدوى الفكرة المثمرة وفعاليتها فى بناء مستقبل وطننا.

وربما . . على هذه الدعائم الثابتة فى ثقافته، وعلى مستواه الفنى الذى بلغه فى أعماله السابقة . . ستكون ركيزتنا فى مناقشة هذه القصة.

وهذا الميل إلى البحث والشغف بتسجيل الظواهر الجديدة، ثم الحب العميق للوطن، الذى يتجلى فى رسم قسماته، وتقديس طبعائه، والمشاركة الإيجابية فى تخطيط مستقبله . . هذه الملامح نجدها واضحة فى النظرة الكلية إلى الآثار الأدبية التى خطها قلم أدينا، نجدها واضحة أيضاً فى هذه القصة التى فرغنا من قراءتها . .

فحبه لوطنه الكبير تابع من حبه لقريته الصغيرة «شرشابة» التى أودعها ذكريات صباه، وهذا الحب يتجلى فى حرصه

على تقديمها إليك محدداً حتى لتكاد تتعرف عليها دون مرشد . . إنها تبعد عن طنطا بكذا من الكيلو مترات ، وعن زفتى بكذا ، وهي تجاور سنباط ، وتواجه كفر حسين . . وصورة مكبرة لها .

ثم بعد أن تدخلها ستواجهك المنازل القميثة الهزيلة ، والأطفال العراة ، وستحاصرک العيون الجائعة إلى رؤية أى شىء جديد .

وبعد أن تحاذى بك السيارة شاطئ الترعة ، وتسحب ذيلاً طويلاً من الغبار ، ستلتقى بقهوة المعلم حامد المليجي ، وتلتقى فيها بأهات الاستحسان ، وبنظرات مذهولة غائمة من تأثير المخدرات . . بل من تأثير الحياة المملة الراكدة فى القرية . . لكنك فى أعقاب ذلك ستلتقى بالمبنى الشاهق النظيف . . مبنى الوحدة المجمع . . أو لمسة الحضارة للقرية الغافية فى مآهات النسيان من قرون .

وهنا نكون وصلنا إلى مسرح الأحداث .



«الربيع العاصف» تصوير لفترة من حياة هذه القرية ، وقد أحسن المؤلف اختيار الزمن ، وهو حين تمد المدينة يدها إلى القرية ، ممثلة فى الوحدة المجمع ، وهى فترة ممتلئة بالصراع بين

قديم ألفته القرية فاكتسب صفة القانون الثابت الواجب، وبين جديد مسلح بعوامل البقاء، فتحرر من كل ما هو ردىء وجامد من الموروثات.

وقد اختار المؤلف طبيباً وحكيمة فى الوحدة المجمعة، وبعض الريفين ليصور لنا من خلالها هذا الصراع.

على أنه لم يترك لنا استنتاج مغزى القصة، إذا كان لا مفر من البحث عن مغزى، بل قاله صريحاً أكثر من مرة، على لسانه، أو جعله على ألسنة شخصه... وهو مغزى واضح فطن إليه الباشكاتب عبد المعطى نفسه حين قال: الناس ينتقلون فى قريتنا إلى عصر جديد.

ولعله من العجيب أن يكون المؤلف أقل توفيقاً من الباشكاتب عبد المعطى حين يريد أن يكشف لنا عما بين السطور. فعندما تمر السيارة التى تحمل «منال» أمام قهوة المعلم حامد، وتتلاقى العيون الجائعة على وجهها النضر، ينطلق مغنى الموال بصوته الشجى:

والله إن صفأ لى زمانى لأسكنك يا مصر

ويستجيب له الجالسون بالآهات، ويصرخ المعلم حامد وقد اكتشف على نور الجمال الجديد مدى ما يحيط به من رتابة وقنام، يصرخ قائلاً: منك الله يا أم العزى مراتى... يا شيخ الخفر!!

كم تمنيت أن يقف القلم هنا وألا ينخدع الكاتب بالسيل
الجارف من الكلمات، وبالتدفق المسلسل للأحداث.. كم
تمنيت أن يثق في استنتاجنا وقدرتنا، أو أن يكون أكثر قسوة
علينا فيتركنا في حيرة نتساءل: ماذا يعنى؟

ولكنه يمسك بمبضع الطبيب، ويتخلى عن قسوة الأديب
حين يزيل الغموض اللذيذ، ويمسح الحيرة المعذبة الرائعة،
حين يعلق على الموال قائلاً: ومن حوله تنطلق التأوهات
وصيحات الإعجاب السكرى المتشعبة بالروح الجديدة والحياة
الرائعة التى تدق أبواب قريتهم النائمة.



والآن نلتقى بالذين يمثلون الصراع، أو التفاعل - كما حرص
على تسميته - وهو معنى أحسن الكاتب اختياره، ووفق، لما فيه
من تصوير للامتزاج والمسألة وبعد عن عنف الصراع وقسوة
أسلحته، وأعود فأقول: من الذين يمثلون هذا التفاعل؟

من هم الذين يمثلون وجهتى النظر المتقابلتين؟

إنهم الباشكاتب عبد المعطى والمعلم حامد والحاج على فى
جانب، والدكتور رمزى والحكيمة منال فى الجانب الآخر.

وإجلال الأفكار فى الشخصيات، وجعل الشخصيات
معبرة عن معانٍ يحرص الكاتب على إظهارها، ومسجلة

لحركات اجتماعية يرى رصدها وتفسيرها، كل ذلك رائع وجميل؛ ودليل على حيوية الكاتب وغنى نفسه وإيجابيته. ولكنه- من الوجهة الفنية الخالصة- خطر! . . . فالرمز أرقى وسائل التعبير، ولكنه أيضاً أكثرهما احتياجاً للدقة والصبر والحساسية المطلقة فى اختيار الكلمات إذ يجب أن تشف كل كلمة، وكل صفة، وكل موقف فى القصة عما يقابله من معنى تجريدى يرغب الكاتب فى تسجيله، أو فى الأقل: لا يجوز أن تتعارض هذه الأشياء مع المضمون العام للعمل الفنى.

ولكى أكون واضحاً أتساءل: هل مثلت هذه الشخصيات القرية والمدينة؟ أو التأخر والمدنية، أو الجمود والروح الجديدة تمثيلاً صادقاً؟

ولنحتكم إلى شخوص القصة . .

الباشكاتب عبد المعطى، أروع هذه الشخصيات، تتغلب عليه النزعات الشريرة والرغبة فى الإيذاء، إنه - حقاً - يدافع عن الحقوق المسلوقة، ويشهر بنائب الدائرة اللص، ويستنجد بالمسؤولين لإنقاذ القرية من المجاعة، لكنه أيضاً «إذا ضايقه أحد، أو عرقل له أمراً، أو خيب له رجاء، لا يعدم عبد المعطى حيله كى يوقع أحدهم فى ورطة»، وهو «دعوب حقود شرس بطبعه».

وهو أيضاً: «يكره من هم فوقه حتى لكأنه يظن أنهم سبب فقره وسبب مرضه».

ثم إنه من وجهة نظر طبيب المجمععة: «وسيط خيىث يأخذ أجرة الكشف الطبى ويحتجز لنفسه السمسة المعهودة».

ألا أكون محققاً حين أعرف أن القرية تحبه، وأن الفلاحين يشبهون خطه بسلاسل الذهب، ألا أكون محققاً فى اعتبار القرية مجتمعاً مريضاً يعشق البطولة المريضة!!

والمعلم حامد تاجر مخدرات، ومتعهد يغش المرضى من أبناء قريته. خيانة تكعيب.. ويقدم الرشاوى للموظفين.

والحاج على داهية جبار بماله، ويسلطات أخيه حكمدار البحيرة، وبقطاع الطرق الذين يجمعهم حوله.. وهم جميعاً تستعبدهم غرائزهم الدنيا، وهى غرائز مريضة منحرفة تجد لها متنفساً على حساب فتاة مسكينة وحيدة لا حول لها، فيحاول كل منهم امتلاكها بوسائله الخاصة.

ومثلو الروح الجديدة.. لا روح لهم!!

منال تذهب إلى القرية ضائقة الصدر، كارهة، كأنها باريسية، وليست من حى السيدة زينب، وكأنها فى طريقها إلى مذبح قبيلة أسطورية من آكلى لحوم البشر، وليست ذاهبة إلى قرية مصرية فى محافظة الغربية، وهكذا تذهب ودمعتها

على خدما، وهو لا يصورها لنا إلا عابثة لاهية، ولا تكاد تفيق من عبثها إلا حين تنطلق الشائعات من حولها، حيثئذ فقط تتذكر مهمتها وتكشف أنها ليست عمرضة خصوصية لعبد المعطى والمعلم حامد، وإنما هى للجميع، للشباب والشيخ والأطفال . . رجالاً ونساء، وتكشف أيضاً أن المتعهد يغش الأغذية، فتروح تدقق فى الخبز والكوسة، وتثور من أجل الخبز البابت !! والطبيب الدكتور رمزى . . لقد كفانا مؤونة البحث عن سره، إنه يقول لمنال: «فى عام واحد يجب (هكذا . . يجب !!) أن أمتلك سيارة فاخرة تليق بى كطبيب، كما يجب أن يكون معى مبلغ كبير من المال» !!

فتقول منال: أحلام الأطباء الجدد، مجد ومال وعربة فاخرة. ويرز الطبيب هذا الشره، أو يبرز له المؤلف قائلاً: «وماذا فى ذلك، نحن ندفع الثمن من دراستنا الصعبة الطويلة، ومن عملنا الشاق فى هذه الغربة وسط الفلاحين والبعوض والتراب» .

ليت شعرى . . أين يريد هذا الطبيب مصاص الدماء أن يعمل إذن إن لم يكن بين الفلاحين والبعوض والتراب !!

ومع ذلك فإنه لا يتورع عن التحايل على القانون - هذا مثل الروح الجديدة!! - فيعالج المرضى خارج الوحدة المجمع،

وإذا بليتم فاستروا، ولكنه لا يستتر؛ وإنما يقاسم الباشكاتب عبد المعطى الدماء المتزقة من الفلاحين التعساء.

وليست هذه كل سيئاته... أو سوءاته، فتستطيع أن نضيف إليها وقاحته فى مغازلة الحكيمة منذ الأيام الأولى للقائهما، وكأن هذا حق مكتسب بحكم وظيفته الرئاسية لها، قبوله للرشوة تحت ستار الهدايا وتبريره لذلك بأنه لا يستطيع مقاومة رغبات العصابات التى تحكم القرية؛ لأنهم أشرار، وهو غريب ووحيد!!

وهكذا عاش مثل الروح الجديدة والنور الخلاق... عاش بلا مبادئ، بلا عمود فقرى يعصمه من التهافت فى التراب، وقدم لنا بطريقة تجعل تفسيره على مستوى الرمز وصمة للمدينة التى ذهبت لتعيد الحياة إلى القرية.

والذى نحرص على تسجيله هنا أننا لا نريد بما قلنا أن نزعج أن هذه الشخصيات مفروضة على القصة، أو غريبة على الجو الذى خلقت فيه وعاشته... كلا.

فمن منا لم يقابل الباشكاتب عبد المعطى فى القرية؟ الأزهرى الذى فسد، فعاش يتقاضى الناس ضريبة علمه القليل الكليل؟

ومن منا لا يعيش -ولو فى نجوة عن نفسه- بأحلام الدكتور رمزى، أو ببعض أحلامه، ولفترة من عمره، ربما

تكون بداية التقائه بالحياة العملية وقبل أن تعركه التجربة مثل
الدكتور رمزي؟

ولكني أريد أن أقول: إن الرمز هنا ناقص، فلم نلتق بالقرية
في أعماقها البسيطة الكادحة المؤمنة، المسلحة بالصدق
والمسألة والوضوح، ربما وجدنا بعض ذلك في أم العز، الطيبة
الصابرة الوفية لزوج منحرف عابث، ولكن ليس بالقدر الذي
يتعادل مع طغيان الشخصيات الأخرى المريضة التي تناثرت في
جو القصة، والتي لم يخفف من قسوة دلالتها تلك النهاية
المسألة الجميلة للقصة، حين تنطلق السيارة بالطبيب
والحكيمة، وقد تاب المنحرفون إلى رشدهم، ومصمص أهل
القرية في أسى لسفر الطبيب والحكيمة قائلين: الله يجازي
أولاد الحرام.

ربما كان في ذلك بعض الاعتذار عما سلف، لكنه في
نهاية القصة، وفي لمحة، وليس فيه دلالة المشاركة الفعلية، أو
عمق العنصر الصالح كنا نحتاج إلى شخصية أخرى تضاف
إلى مجموع هذه الشخصيات، أو تحتل مكان إحداها،
وتكون الميزان العادل للتعرف على حقائق الأشياء.

كما أنني لم ألتق بروح المدينة الحديثة التي يمثلها المثقفون
كما هي، ولا كما يجب أن تكون، فالطبيب بلا مبادئ مثل

الآخرين، ومنال عابثة، وليتنى التقيت بكفاحهما فى القرية، واشتجارهما مع أهلها حول مشروع جديد لرفع المستوى الصحى أو القضاء على بعض الخرافات السائدة فى العلاج مثلاً، ولقد حدثنى الكاتب بنيته فى كتابة قصة عن وباء الكوليرا فى مصر، فلعلة يتحاشى هذا الذى أراه . . إن رآه مثلى .

ولعل شخصيات هذه القصة هى أبداع ما فيها، إذا فهمت متحررة من الرمز، وللكاتب الأديب قدرة فائقة فى رسم الشخصيات وتحريكها، وإسباغ معالم الحياة عليها . . ولعلنا لم ننس «فريد الحلوانى» بطل قصته الرائعة «فى الظلام» .

وهنا نلتقى بشخصيات ممتازة التصوير، متكافئة مع نفسها، ومنطقية فى مواجهة الأحداث .

فلاشك أنك مثلى تحب وتكره الباشكاتب عبد المعطى، تشفق على ضعفه وعجزه وطموحه، وتضيق بإلحاحه وشراسته . . إنه فارس من لون غريب . . مثل اللص الشريف . إنه حقود شرس، ولكنه إنسان . . يذل أمام الجمال، وتذهب به الأمانى إلى بعيد . . «أحقاً ستسافرين إلى الأبد يا منال . . ولا نراك؟»

ويكتب لها فى الرسالة «عزيزتى منال . . لعل أكثر من خطأ

بدر منى ، والله يقول ليس على المريض حرج ، وأنا كنت مريضاً ، وليس على الأعمى حرج ، وأنا نصف أعمى .

إن هذه الشخصية مرسومة بعناية ، عناية طغت على النماذج المألوفة عن الشخصيات الريفية ، فلا تنقصها أية صفة لتفيض بالحياة والحركة ، ولتكون محلاً لإعجابنا .

وربما نازعها هذا التفرد بروعة التصوير المعلم حامد المليجي . . الذئب المكشر عن أنيابه فى ابتسامة خبيثة سامة لا تخلو من سحر الإغراء .

ولقد أعجبت بالمعلم حامد فى كل أحيائه ، حين يغرى ، وحين يسخر من زوجته ، وحين يغضب . . ولم تخنه أعصابه ، وهى أعصاب تاجر مخدرات ، مرة واحدة . . حتى حين هاجمته الشرطة وبيته يحترق .

وهو يقدم زوجته إلى منال قائلاً : زوجتى . . الأشغال الشاقة المؤبدة التى حكم بها أبى على رحمه الله . . زواج بدل . وحين تطرى منال جمالها يقول : إنها لا تصلح إلا للأعياد والمواسم . . مثل النعاج تماماً . .

وإذا كنت تضحك لتهكمات حامد ، فإنك ترثى لأم العز ، المعبرة عن أعماق القرية البيضاء حين تتلقى رهاناته بابتسامة لا تعرف الحقد قائلة : يطول عمرك يا سى حامد . وهى تصر على

أنه رجلها، وأبو عيالها، وتصر على أن الله يجب أن يبارك فيه حتى حين يصطحب فتاة جميلة إلى بيته!! فحين يقول المعلم: هذه الجاموسة لا تعرف المرض. تقول أم العز: ربنا يبارك فيك يا سى حامد.

هذا هو الإبداع.. إبداع الفنان حين يأبى الانصياع للإحساس المباشر الفج، ويتعمق الشخصية حتى تصل في ذهنه إلى مرحلة الوضوح المشرق، ثم يتركها تحقق ذاتها.

وعندما تغاضبه منال، وترد المكرونة، وتأمّر بشراء الأرز على حسابه، يقول دون أن تزايله الابتسامة: كلام الملوك لا يرد، لكنها حين تقذف له بالسوار، يعرف كيف وأين يوجه ضربته، فيخلع عن نفسه الابتسامة لتظهر أنيابه ومخالبه، فيقول.. أنا أثقل من أن يحملني أحد عنوة، والناس هنا لا يأخذون أوامر النساء مأخذ الجد.

وشخصية الطبيب أيضاً لم تخل من هذه الدقة في بعض جوانبها فهو في قصة حبه للحكيمة يبدأ بأن يخاطبها بعزيتي منال، ويعد أيام يزحف بيده حول خصرها، ثم قبلة والليل ساكن، ثم دعوة صريحة لقضاء عطلة آخر الأسبوع في الإسكندرية، وحين يصفعه الرفض، ويعتكر جو العمل في المستشفى يفكر في الزواج منها!!

ألَسنا نكتشف فيه أنفسنا!؟



ولعل الدراسة العلمية لأديبنا فى حياته الجامعية علمته الاستغناء عن فضول الكلام، والاكتفاء باللمحة الدالة، والميل إلى التقصى، وتقليب الرأى فى المسألة الوحيدة على شتى الوجوه... وهذه جميعاً أهم أدوات الفنان الحق.

ومع ذلك فأسلوب هذه القصة لا يخلو من هنات وإن كانت قليلة.

ففى البداية تطالعك هذه الجملة: لم يكن فى ذهنها - والعربة تسرع عبر الطريق الزراعى الممتد بين قريتى سنباط وشرشابة - سوى صورتين متناقضتين.

ألا ترى أن هذه الجملة المعترضة الطويلة تهز الصورة، وتكاد تذهب ببيئاتها؟

ومثل ذلك ما يقوله عبد المعطى عن الطلبة الجامعيين فى القرية (الذين تجاهل الكاتب وجودهم إلا فى هذه الجملة!!): وأحذيتهم اللامعة التى تشبه فى لمعانها بشرة وجوههم التى يجرون فوقها الموسيقى صباح مساء.

هذا التكرار والتوليد فى الصفات، والربط بينهما بحروف الصلة لا يجعلها فى مستوى التعبير الفنى السليم.

على أننا نلتقى بالأسلوب الممتاز، المعتمد على إشعاع الكلمات، ووميضها، والاقتصاد فيها دون تقتير أو قصور، وانتفاها بعناية تثير الإعجاب فى أماكن كثيرة.

فهو حين يصف منازل القرية يقول: تفوح من داخلها روائح (حياة) الإنسان والحيوان.

فانظر إلى المغزى الرائع، والمعانى المتعددة التى تزخر بها كلمة (حياة).

وعندما يمرض عبد المعطى ويلزم بيته، يحل وسيط آخر بين الطبيب وبين مرضاه، وكان عبد المعطى منتشياً بزيارة منال له فى بيته، لذلك «كان زاهداً فى المال الذى يعطيه له الطبيب ولم يشعر بحقد (بالغ) تجاه الرجل الذى شغل مكانه».

ألا يدل اختيار هذه الكلمة (بالغ) على مغزى عميق التعريف بنفسه الباشكاتب الذى لا يتخلى عن حقه أبداً؟

وعندما يناجى عبد المعطى «منال» فى المستشفى، ويحاول أن يقنعها بقوته، يقول لها: ألا تذكرين حين قال الطبيب يوم (لقائنا الأول) أننى أهم شخص فى شرشابة؟ كان يستطيع أن يقول يوم جئت الجمعة، أو يوم رأيتك أول مرة أو يوم رأيتنى مع الطبيب ولكن (اللقاء الأول) بالنسبة للمحبين شىء فى غاية الأهمية، إنه مصدر الحياة حبهم فى كل حين، ومن ثم

فإن هذا اللفظ أثير لديهم ، يجرى على ألسنتهم وكأنه تأشيرة مرور إلى استئناف العلاقة إن انقطعت ، وتوثيقها إن وهنت .

ويمتزج هذا الأسلوب المقتصد بالتحليل الدقيق والتصوير المتقن فى مواقف كثيرة :

فبعد المعطى حين تقرصه فى خده ، يقف فى مكانه لا يغادره «ومن آن لآخر يتحسس خده الذى قرصته منه ، ثم ينظر إلى يده التى لمستها ، ويدوب فى مشاعره الشجية ، ويخيل إليه أنه يلقى برأسه على صدر حنون دافئ فيه حب وحياة وسكينة ، ويتسع فم عبد المعطى بابتسامة تنبع من أعماقه ، وتشرق عيناه بدموع الفرح ، وتبدو الشمس من حوله تنير المكان وكأنه رجل جديد» .
حتى الشمس . . الظاهرة المتكررة بعدد لحظات الزمن ، اكتشف عبد المعطى فجأة أنها تنير نفسه ، لأنه يحب .

وفى موقف آخر حين تسخر منال من محاولة المعلم الزواج بها ، وتعلن أنها تأنف أن يسمح حذاءها . . «كان لهذه العبارة صدى متنافض فى نفس عبد المعطى ، فقد اجتاحتها نشوة عارمة حينما سمعها تسخر من المعلم . . لكن ما معنى ذلك؟ هل منال تنظر إلى القرية ورجالها وعواطفها هذه النظرة المتعالية الساخرة؟ فماذا تكون نظرتها إلى عبد المعطى العليل الفقير إذن؟» .

وعندما ترفض منال الرشوة المتوارية فى السوار، ويقول للمعلم: أنا لا أقبل الرشوة ولو قطعت رقبتى، فإنه يهتز لشجاعتها الطارئة ويستمتع بتحدى الغير له، وحين تهيئه يحدث نفسه: هذا الصنف المتمرد الشائر من النساء حلو المذاق، شىء لم أجربه، إنها تنتفض بالحياة وتلفح كالنار.

على أن فى القصة بعض السرد الذى تمنيت لو تخلصت منه، فالفن دعامته الإحساس الصادق، وهذا متوفر، ثم التعبير بطريقة فنية تخضع لمقومات الشكل الذى اختاره الفنان للتعبير عن تجربته وهذه المقومات مستقاة من الأعمال الخالدة التى خطها رواد هذا الفن.

ووسائل التعبير فى القصة يجب أن تختلف بين المواقف بحوارها، والوصف، والتحليل، والعمل، والتأمل والاستبطان ولكنها ضد السرد، الذى يبدو مفروضاً، ودخيلاً، وجافاً.

ولنضرب لذلك مثلاً؛ فعندما تزور منال والطبيب عبد المعطى فى مرضه، يتحدث عنه المؤلف بقوله: وعبد المعطى فى ذلك الوقت طفل فى عواطفه وانفعالاته.

ولو أنه قال- على سبيل المثال- إن فرحة طفلية بدت على وجهه الشاحب حين رأى منال تدخل عليه، يبدو لى أنه قال ذلك لكان أبعد عن السرد، وأقرب إلى لغة القصة.

على أن السرد يسوق إلى نقطة ضعف أخرى في لغة القصة وفي مواقفها، هي إجمال المشاعر الإنسانية في كلمات . . مثلاً «كان عبد المعطى قد عاد إلى بيته - بعد أن أسف لتصرف منال معه وفي قلبه الآلام والأحزان».

ترى لو حذفت الجملة المعترضة كالشجا في الحلق، هل ينقص إحساسك بها، في موقعها من السياق شيئاً؟ على أنها تحمل موقفاً عاصفاً مملوءاً بالانفعالات المتضاربة، والأسى العميق، وهذا الإجمال يقتل الموقف قتلاً.

إن ذلك ليذكرني بنجوم السينما عندنا، حين يتغلبون على عجزهم عن مواجهة اللحظات الدقيقة، مثل سماع نبأ فاجع، بالبكاء المباشر، أو إعطاء ظهرهم لآلة التصوير . . أو الهروب بالإغماء.

كلا . . في الفن . . الهروب ممنوع، ويجب أن يصمد الكاتب لكل موقف وأن يعطيه غذاءه الكافي من أعصابه وروحه، وقدرته على الإحساس وتقمص الشخصيات ومعايشة الوقائع.

وكاتبنا الأديب متصل أوثق بروح هذا الشعب، وهو يحن دائماً إلى لغته ووسائله في التعبير عن مشاعره، وللموال في قصصه دائماً مغزاه العميق، وحساسيته الشفافة، ولكن

حماسة للموال الشعبي يسوق أحياناً إلى وضعه فى غير موضعه .

ألا ترى إلى ذلك الغناء الذى سمعته منال وهى فى طريقها إلى منزل المعلم حامد، كان عقد قران، أو كتب كتاب كما نقول فى لغتنا العامة، والمأذون يوثق والرصاص يزغرد فى الجو . . وكانت النساء تغنى :

هاتوا الذهب وشعروا ع الأرض

ماهش خسارة فى بياض العرض

وأغانى بياض العرض لا تقال فى الريف عند عقد القران وشرب الشربات، بل فى ليلة الزفاف حسين يثبت (بياض العرض) بطريقة بدائية!!



واللمسات السريعة فى نواحي القصة متقنة، وجميلة، وموفقة، فسائق العربة التى تحمل (منال) يخبرها أن الخفير يحميها، وربما لا يغيب عنه أنه يتحدث إلى امرأة، ودأب النساء حب المديح والمبالغة فيردف: القرية كلها الآن تعرف أنك فى الطريق .

ومنال تصرخ فى أمها وهى تلهث: زجاجة كوكا كولا يا

ماما . . ما هذا البخل !! والمعلم حامد يتصدق على المدمنين
بالخشيش !!

وبعض مأساته زواج البدل ، وهى مشكلة طالما عانى فيها
الريف والمدينة معاً ، والحاج على يعبر عن اغتباطه بلقاء أم منال
بأن ذلك يعتبر «فرصة ذهبية» ، وللذهب عنده وميض خاص ،
فلا يلبث أن يخرج ساعته الذهبية أيضاً .

وهناك صورة ساخرة ما أحسب أن الكاتب أراد بها
السخرية ، وذلك حين صور «منال» وهى تتسلم الأغذية من
المتعهد ، وكانت «تمريرين الأقفاص والجوالات الممتلئة
بالخضراوات والأرز والمكرونه والأرغفة والبيض واللحم ،
تنهادى فى بهاء كالوردة اليانعة ، خطواتها خطوات أمير
يحوطها جو المهابة والسحر والجمال» .

أترى . . وردة ، وأميرة ، وسحر ؛ ومهابة ، وجمال . . بين
جوالات السبانخ والكرنب . . وربما الفجل أيضاً !!

لا يا سيدى الأديب ، ليس الجمال إدراكاً حسيّاً ، أو رؤية
عينية منفصلة عن باقى الإدراكات ؛ إنه إحساس عميق نتيجة
لاكتشاف التناسق بين مجموعة المشاعر التى تسهم فى خلقها
حواس ظاهرة ، وحواس خفية أيضاً .

وفى غاية المطاف نلتقى بلحن سلام . . . ينتهى التفاعل إلى المسألة، الطيب والحكيمة متفقان على الزواج، والعربة تمضى بها بين دموع أبناء الحلال الذين يستعدون السماء على أولاد الحرام . . . وربما استفادوا من تجربتهم مع رمزى ومنال فيحسنون لقاء من يأتى بعدهما، وحين يذهب الباشكاتب عبد المعطى إلى حيث لا أحقاد، يتصافى المعلم حامد الذى تاب عن تجارة المخدرات، والحاج على . . . ويلتقيان فى بسمه تحمى أصدقاءها الألداء .

بعد هذه الجولة الطويلة فى الربيع العاصف، التى أرجو ألا تكون مملة، وأن تكون قد وثقت من صلتك بهذا العمل الجميل الجاد، الذى لا ينال من جدته وقوته ما لاحظناه عليه من أشياء جزئية لا تتسرب إلى بنائه المحكم وأدائه الخصب .

بعد هذه الجولة هل نستطيع أن نتساءل: أين مكانها فى أدبنا القصصى .

إنها قصة مرحلية، تصور فترة من حياة بقعة من هذا الوطن، ومحلية الموضوع لا تتنافى مع إنسانيتها العميقة، وما تناقشه من قضايا وما تصوره من مشاعر مشتركة بين البشر .

إذا كانت «الأرض» للشرقاوى قد صورت القرية المصرية فى عهد الاستبداد، و«زقاق المدق» لنجيب محفوظ، قد

صورت المدينة المصرية أثناء الحرب، فإن «الربيع العاصف» لنجيب الكيلانى قد صورت القرية المصرية وهى تمد يديها للمدينة الحديثة، والعلاقات تضطرب بينها فى مد وجزر فينتج هذا الصراع . . أو التفاعل . . الذى يحرك الوجود، ويصنع الحياة.

إن هذه القصة تظهر حقائق الحياة بسيطة وسهلة، وتؤمن بمقدرة الإنسان على التطور والإبداع، وتعطف على مشكلاته وتشترك فى حلها:

وهى دعوة إلى تكريم إنسانية الإنسان، واحترامها، وترحب بالجهود البناءة الواعية لحضارة واعية.

وهى أيضاً نغم منسجم مع إنتاج هذا الأديب، وفيها ما لاحظناه على إنتاجه العام من هادفية مؤمنة، وعمق وشفافية متصوفة تبدو كومض الخاطر بين السطور.



الصديق الأديب الدكتور نجيب الكيلانى أحد أطباء أربعة فى جيلنا شغلهم الأدب عن التفرغ لمهنتهم، فلم يتخذوه لهواً، ولا ترفاً وإنما تناولوه تناولاً جاداً، وعميقاً، وأملوا أن يؤثرُوا فى حياة قومهم عن طريقه.

وإذا كان لكل واحد منهم اتجاهه الفكرى ، أو طرائقه فى التعبير ؛ فإن نجيب الكيلانى ابن مخلص لهذا الوطن الكبير ، وتجلّى إخلاصه العميق فى كتاباته الجادة التى يغلب عليها طابع الرصد والتحليل ، والتى تعطف على حياة الناس ، وتدعو إلى تنقية الضمائر ، وتلاقى القلوب على معنى الحب والإيمان . .

محمد حسن عبد الله

القاهرة ١٠ يونيه سنة ١٩٦٢

